عروس الحجلة

رواية

شعبان عبد الكريم

2017

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد عبد الحليم

مدير الإنتاج

أحمد فؤاد عبد الحليم

الطبعة الأولى

الكتاب : عروس الحجلة

المؤلف :شعبان عبد الكريم

تصنيف الكتاب : رواية

تصميم وإخراج : أحمد فؤاد عبد الحليم

المقاس : 14×20

رقم الإيداع :2017/8150

الترقيم الدولي : ISBN 978-977-90-9759

العنوان: المكتبة والمطبعة3 : ش صفوت- محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة

التليفون01157760052 - 01229300029 :

Email : yastoron@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب -جميع الحقوق محفوظة للمؤ

إهداء

إلى روح الشهيد...

"في دروب قريتنا الواسعة كنا نلعب "الحجلة" .

فى لعبة " الحجلة " ينقسم الصبية إلى فريقين كل فرد يمسك طرف قدمه اليسرى بيده اليمنى ثم يحجل على الأرض ويدفع خصمه من الفريق المنافس بشماله حتى يطرحه. لكل فريق عروس يدافع عنها، فى الغالب يكون صبي يعينه أفراد الفريق ,وأحيانا تكون صبية مثل نعمات .ينهزم الفريق إذا سقطت عروسه

العروس فى فريق سيد ابن زكريا لاتسقط أبدا

لكن حين تمدد وجهها بطول البلاد وعرضها وتغيرت شروط اللعبة

وقف الخصم على قدميه وعلى أرض صلبة بينما راح هو يحجل فى رمال متحركة

وهى خلفه تضع يدها على قلبها سقط ولكن ليس قبل خصمه"

الراوي،

الفصل الأول

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169

ال عمران

دمعة تترقرق فى عينيه وابتسامة تروح وتجىء على شفتيه هذه عادته حين تجتاحه الذكريات ، يداهمه شعور أنه سيراه قريبا نادى عليه بينه وبين نفسه :

"يمكن تكون آخر مرة ياسيد ، آه ..الله يرحمك يا أمي... بقى الخوه فى الدنيا بس"

ليس ثمة شئ من الماضي سواه, يجلس على "دكته" الخشبية تحت شجرة الكافور الضخمة أمام "مندرة الضيوف" يهوي " لنفسه بمروحة يدوية تشبه العلم الصغير ، مروحة منسوجة من الصوف ومثبتة فى طرف قطعة خشبية ملفوفة بقماش من القطن .

ضخامة جسده وتدويرة وجهه واتساع عينيه العميقتين وتعرق جبينه الأسمر تحت عمامته ناصعة البياض, كل ذلك يجعل من يراه يشعر أنه أمام شيخ قبيلة بيعتر عبرت لتوها من جزيرة العرب.

حجرته الخاصة التى اعتزل فيها بعيدا عن زحمة الأولاد والأحفاد , هى الوحيدة المتبقية من بيوت العائلة القديمة ,مبنية بالطوب اللّبن ومسقوفة بجذوع النخل , لم يطرأ عليها جديد سوى أنهم رشوها بالجير، ولونوها باللون الأزرق وكتبوا علي جدارها الأمامى العبارات التي تشير إلى أكثر المناسبات التي يعتز بها الناس فى القرية

"حج مبرور وذنب مغفور"

"حج وزار بيت الله الحرام الحاج / محمد زكريا خليل وحرمه 1414هـ 1995م "

رسموا الكعبة والناس يطوفون حولها وطائرة ورجلا مرتديا لابس الإحرام يرفع يديه الى السماء .

مثل كثير من قرى الأقصر التى تحاذي الصحراء الشرقية، لم تعد ((الخضيرات)) اسم على مسمى فالكتل الخرسانية مزروعة فى كل الجهات.لم يعد اللون الأخضر على إمتداد البصر.

فى آخر مرة ارتقى فيها سطح بيته لم يستطع أن يلمح ذلك الخيط الذي سار نحوه ذات ليلة مع شقيقه سيد في صباهما.

شارع واحد وفسيح كان يفصل بين بيوت القرية وبين الأرض الزراعية التى تمتد حتى تتشابك مع التلال الصفراء، بينما يقف ذلك الجبل شاخصا الي السماء وشجر"الاثل" المتناثر يفض الأشتباك بين ماهو أصفر وما هو أخضر.

ترعة صغيرة متفرعة من ترعة" الكلابية "تحد القرية من الشمال، قادمة من الغرب تحفها أشجار الكافور.

اليوم الشارع أضيق من في قبل، أرضيته صلدة قاسية والبيوت على جانبيه تتخللها شوارع أشد ضيقا .

الترعة مقطوعة أشجارها ،شجرة الكافور الضخمة التى بجوار الكوبري ، لم يعد شباب القرية يجلس عندها كما كان فى الماضى فقد هجروها منذ ضخوا في الترعة الصرف الصحى القادم من المدينة .

كل شيء تغير فى عيني الحاج محمد، لكن أكثر ما يحزنه ذلك الذي أصاب النفوس .

فى الماضي كان فى النفوس لين وبراح..

لين تلك الرمال الناعمة التي كانت تغوص فيها أقدامهم وتحتضن أجسادهم حين كانوا يتدافعون فى لعبة الحجلة وبراح يمتد إمتداد الزروع.

الحاج محمد رجل من الماضي آثر أن يلزم مسبحته ومصلاه , قليلة هي المرات التي يذهب فيها إلى ساحة الشيخ البغدادي ، يلتمس الذكر وصحبة الماضي ولهذا السبب وحده يحب عزالدين ذلك الشاب الفقير لانه يذكره بشيخه هاشم ويذكره أيضا بشقيقه سيد ولهذا السبب أيضا لا يأنس لأحد كما يأنس لأختا "فتحيه".

فتحيه أيضا إمرأة من الماضي ورغم جمال ملامحها السمراء إلا أنها رفضت كل من تقدم لها بعد وفاة زوجها ، فقط تعيش على ذكرياتها معه ، منذ أن كانت تتلصص عليه وهو بصحبة شقيقها الراحل

كانت تريد أن تبقى فى بيته الذي عند أهله فى أقصى أطراف القرية, لكن أبوها الحاج زكريا خليل قال:

-كيف تقعد فى بيته وهى حتى ما خلفت له ولد ؟

أعطاها ميراثها في حياته وقال :

-فتحيه ما تعيش عالة على حد أبدا

أعطاها ذلك البيت الصغير الذي كان شقيقها الراحل قد أعده للزواج ترى هل كان يعلم أن ذلك يعزيها؟ ربما

فتحيه كانت تتحسس فيه آثار زوجها حين كان يساعد شقيقها فى بناءه وتجصيصه، لاتزال أثار أصابعه منقوشة فى الملاط الذى يغطي شقوق الجدران ، تغلق الباب على نفسها ، تلثم بفمها النقوش ، تدندن بشجن

- عيني على أحباب

فاتوني وسكنوا التراب

تدور فى البيت تتنسم أنفاس زوجها وحبيبها حين كان يسهر معها لساعات الطوال وكانت هى تد خل عليهما أحيانا ب"صينية الشاي ".

الحاج محمد أيضا اقتطع من هذا البيت الصغير حجرته الخاصة وجعل لها بابا منفصلا بجوار مندرة الضيوف

ذكريات الماضي تهيمن على كل أحاديثهما , لكن آخر ماكان يخطر ببالهما ،أن يعود ذلك الماضى قويا و ملهما.

بيوت أولاد خليل ، حسين وزكريا وسعدتتحلق حول فضاء واسع، أطلقوا عليه "تبة العائلة"وفى نهايته بوابة كبيرة تفضى الى شارع القرية الرئيسى, عند البوابة وعلى يمين الداخل " مندرة " الضيوف تليها حجرة الحاج محمد ثم حجرة فتحي ثم بقية بيوت العائلة، على يسار البوابة"حوش" الهائل القديم وطلمبة الماء والعربة"الكارو"المتهالكة ضلفتى البوابة مصنوعتان من الواح خشب" الاتل" الثقيلة.

بعد وفاة محمود زكريا، أصبح محمد كبير العائلة لكن أمورا كثيرة كانت قد تغيرت جعلته ينسحب من الحاضر شيئا فشيئا ولم يعد يهتم الا بذلك المستقبل البعيد المستقبل الذى تتجلى فيه الحقائق وتتحقق الوعود يسئل دائما :

هل صحيح سيلقاهم مرة أخرى ؟

سيد وحسن , الشيخ هاشم وفاطمة

صوت من الماضى " صوت أمه " يلح عليه دائما :

" الخوه يا ولدى فى الدنيابس".

صورة شقيقه " سيد " تخايله فى كل مكان.

في طريقه الى المسجدعندالبئر القديم حيث كان ينزع الماء للمتوضئين

فى كتّب الشيخ هاشم فى الناحية الخلفية للمسجد.فى ساحة الشيخ البغدادى .

حين لمح عز الدين عند المسجد فى نفس مكان جده الشيخ (هاشم) وصبية يتقافزون حوله تماما كما كان يفعل وهو صغير فيضربه الشيخهاشم "بسلف أخضر" ضربة هينة لكنها كانت تتكفل بردعه.

تهادى نحوه وهو يتكئ على عصاه , سلم عليه وقال :

- صحيح يا عز الدين ياولدى "الخوه فى الدنيا بس"؟

- من قال هذا ياحاج محمد؟

- كلام سمعناه من كبارنا.

- لا ياعم محمد " الخوه" فى الدنيا والأخرة , ربنا قال :

"والذين أمنو واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم ", وقال:

- " إخوانا على سرر متقابلين "

معقول يا حاج محمد الواحد منا يدخل الجنة وما يقابل أخوه؟

- والله وورثت جدك ياعز الدين، ريحت قلبى ياولدي.

الحاج محمدتماما مثل والده زكريا، قدم فى الساحة محافظا على عهده مع الشيخ البغدادى ومداوما على أورادهوقدم عند الشيخ هاشم ومن بعده عز الدين يستمع للفقة والعلم .

الخلاف بين الشيخ هاشم والساحة قديم ومشهور

ورث عبد الحى مشيخة الطريقة بعد أبيهالشيخ البغدادى ،غير أنه لم يرث حلمه لا شفقته، بينما ورث عزالدين طبع جده هاشم وأخلاقهوعداوة الساحةقضية الخلاف ما زالت حاضرة وكذلك الخصوم ،غير أن الجمهور بدأ ينفض وينشغل بلقمة العيش

عاش عزالدين فى بيت جدلأمه الشيخ هاشم ، لم يفكر فى العودة إلى بلدة أبيه حتى بعد وفاة جده ، كان الشيخ فى أواخر حياته قد تفرغ تماما لتربية حفيده ، أراد أن يستودع فيه كل أماله وأحلامه .

لم يرد له أن يعمل بالزراعة رغم أنه احتفظ له بأرض أبيه فوكل أمرها لمحمد زكريا . ورغم حب الشيخ للأزهر إلا أنه ألحق حفيده بالتعليم العام وتكفل هو بتعليمه علوم الشرع ، عزالدين أيضا تعلق بجده ووجد فيه العوض عن حنان أبيه الراحل حتى صار رجلا .

لكن بريق حزن ظل يطل من عينيه السوداوتين ونحول لا يفارق جسده الغض ، توالت عليه حالات الفقد ، فى البداية كان أبوه ، ذلك الرجل العملاق الذى كان يحمله على كتفيه ويذهب به إلى الزرغيرى الدنيا من عليائكأنه ملك متوج .

ثم فاطمة شقيقته وخطيب شقيقته سيد زكريا فقدهما هكذا دفعة واحدة ،.

سيد ذلك الشاب الذى كان يصطحبه معه الى أرض أبيه وهو طفل صغير ويتحدث معه كأنه يتحدث الى رجل كبير ، ثم أمه الحنون ثم...

فقط هو حب الناس الذى بقى له يتغذى عليه ، حب زرعه جده الشيخ هاشم بينما راح هويحصده الآن .

هو أيضا راح يبادلهم حبا بحب ، رفض أن يستقر فى القاهرة رغم فرص النجاح التى لاحت له بعد انتهاء دراسته فى دار العلوم ورجع الى قريته يكمل أمرا كان جده قد بدأ فيه .

ليلة الجمعة في ساحة البغدادي دائما ليلة ذكرانشاد.

أراد الحاج محمد التوجه إلى الساحةامتطى حماره نحو الساحة وأردف خلفه ولده سيد .في هذه الليلة أطل القمربدرا، تماما كما الليلة التى كانها مع شقيقه سيد فى نوبة ري , حين بدا لسيد أن يضرب فى الصحراء على ضوء القمر.

يبتسم الحاج محمد وهويحكى لولده أنه سار معه خوفا من أن يتركهسيد وحده عند الزرع مع سيد كان يشعر دائما بالامان.

حكى لولده أيضاما قاله الشيخ البغداي وهو يضرب على صدرشقيقه سيد في جلسة الذكروهويقول: قول يا ابو قلبين قول ...

حين كان ينظر الى ولده مليا ، يجد بعض ملامح شقيقه تترآى له على وجه الصبى ، كان قد سماه باسم شقيقه حين يئس تماما من عودته كما كان يتمنى .

وصل فى الساعة التى كان فيها بعض العمال يفرغون حمولة شاى وسكر وعدس و فاكهة فى مخزن الساحة وكان هناك سلطان صاحب الفرن البلدى الوحيدة فى القرية وموسى عضو المجلس المحلى وفيما بعد جاء أمين مفتش التموين .

تمتم مغضبا:

- أول القصيده كفر

حين لاحظ صاحباه الحاج حسينأبو الجود والحاج عدليأبو حنضلانة ما به من كدر قالا:

-السهره عندك الليلةدى يا حاج محمد فى نبّة العائلة"وفى الهواء الطلق, أمر الحاج محمد "بالحصر "ففرشت وطلب الشاى و "الشيشة".

على قرقرة "الشيشة" بدأ إجترار الذكريات..

أيام كانت الدنيا حلوة والناس طيبةأيام كان بين كل بيت وبيت"طاقة " تتبادل النسوة من خلالها الطعام والشراب وأرغفة الخبز الساخنة وأطباق "المش والملوحة" على ذكر الطاقة ابتسم الحاج محمدوهو يقول:

- أنتم عارفين أنا كيف تزوجت أم العيال ؟

- كيف ياحاج؟

- أمي الله يرحمها كانت واعدة جارتنا الحاجة "بهيّة"برغفين بعد ما تخبز نادت عليها من "الطاق" ثم قالت لى:

-ناول خالتك الرغيفين

فى نفس الوقت كانت الحاجة"بهيّة" تقول لبنتها ال هى حرمنا المصون :

-هات "العيش"من خالتك

هى نظره واحدة وحصل المراد ، كان الحاج محمد يضحك ملء شدقيه وهو يتذكر وجه زوجته الصبوح وهي تطل عليه من "الطاقة" .

- الله عليك ياحاج محمد أيوه كده ..قل لنا أيه بقى ال عكر مزاجك فى الساحة ؟
- الساحة تلوثت ياحاج عدلي
- تقصد ايه؟
- ماكان لازم يقبلوا منهم , الساحة طول عمرها أكلها حلال
- تقصد سلطان ومرسى؟

من غير مقدمات اندفع الحاج محمد يقول:

- عنده حق عز الدين، شوية أذكار وكام الف صلاة على سيدنا النبي بتمسح الذنوب ويرجع الدقيق يتباع فى السوق السودا ومفتش التموين يقبض المعلوم! البلد كلها تعرف سلطان ومرسى وأمين ، لكن الموازين تبدلت, الله يرحمك يا شيخ بغدادي.

الحاج حسين أراد أن يعود بالحديث الى مرحه الأول فقال :

- نرجع للطاقة احسن, فضحك الجميع .
- سمعتم ؟نعمات رجعت ومعها أولاد!
- أولاد؟
- أيوه
- يبقوا أولاد.....
- اسكت ياحاج حسين
- فاكرين لما كانت تلعب معانا الحجلة
- ما كان واحد منها يفكر في فى شئ يغضب ربنا
- اليوم الولد قد الشبر ويقولك أنا أحب بنت فلان
- ولا ال بيحصل فى أفراحنا ؟ حاجة تكسف.

- الحق علينا يا حاج عدلى، الولد ما عاد يحترم كبيره والبنت تقول ما حد له حكم على غير أبوي والأب تحكم عليه الحرمه.
- الراجل فى بيته عصايته خنت
- الحكايه مش حكاية عصايه ياحاج حسين ،الحكايه إن واحد يبني وماتع وراه تهد
- يعني عجبلك عمايل السنهه يا حاج محمد؟
- يعنى هو يا إما نحرقه يا نطلعه ني؟ !
- طيب و عز الدين؟
- ما له ؟
- بياخد الصغارعند الجبلليه ؟
- لا حول ولاقوة الابالله ,يا اخى هو يلاعبهم كوره
- شيخ جامع ازاى ويلعب كوره؟!

ضحك الحاج محمد طويلا وهو يتذكر ما حكاه له صاحبه المنشاوى الذى نزل عليه ضيفا منذ أيام.

صلى معه الجمعة فى المسجد عند عز الدين الرجل تأثر بخطبة عز الدين لدرجة أنه بكى.

بعد الغداء وشاى العصر، ركب الرجل حماره راجعا الى قريته وبعد الكوبر الذى يفصل بين القرية وبين الطريق المحاذى للسلك الشائك الذى يفصل بين ثكنات الجيش والمزارع

كان هناك فضاء واسعقد اتخذه الشباب ملعبا.

حين مر الرجل بحماره وسط الملعب هدأ الشباب اللعب

لكنه وقف فجأة يحدق فى واحد منهم.

كان عز الدين الذى ابتسم بدوره، وقال للرجل:

أيوه أنا هو.

فاخذ الرجل المنشاوي يهز راسه و يلكز حماره ويردد :

شيخ ويلعب كوره!!!!!.

نظر الحاج محمد إلى صاحبيه نظرة ذات مغزى ثم قال :

بالله عليكم مين منكم لا يتمنى أن يكون عزالدين خطيب بنته ؟

غادر الأصحاب وبقى الحاج محمد وحده تهيجه الذكرياتصوت إذاعة القرآن الكريم ينبعث من حجرة الحاجة فتحية. كان يعلم أنها لا تنام قبل أن يمرعليها ويحكى معها قليلا. دخل عليها مبتسما، لم يدر لماذا تذكرها فى هذه الليلة البعيدةليلة زفاف شقيقه الأكبر محمودزكريا, ربما كانت هذه الذكرى تغضبه منها حتى وقت قريبلكنه الآن يعلم أن ما حدث فيها كان حظها من السعادة , لو كان يعلم لتمنى لها قسطا أكبر قبل أن تفارق السعاة آل زكريا, فتحية الآن كأنقلبها وقفعلى الأحزان ، راح يلاطفها :

- كنت ناوى أضربك لكن قلت يالله المسامح كريم فاكره يافتحيه؟

تضحك العجوز وهى تتذكر..

لولا إضطرابها حين رأت حسن فى الصف لما استطاع محمد أن يتعرف عليها وهى ترقص. دون أن تظهر تفصيلة واحدة من تفاصيل جسدها ودون أن يرى أحد وجهها تستطيع المرأه وربما الفتاة فى أفراح هذه القرية من قرى هذا الصعيد الموغل فى العادات والتقاليدالصارمة أن ترقص أمام الرجال على إيقاع الدف ودق الكفوف.

فى ليلة زفاف محمودزكريا وعلى ضوء القمر والنيران التى أوقدوها لينضج عليه لحم"العجل"الذى ذبحه الحاج زكريا جلس الكبار فى" مندرة" الضيوف والنساء فى الطرف الأقصى من "تبةالعائلة" بينما راح الشبابيخوض الرجال والصبية وسط التبة يدقون "الكف".

حيث يقفون صفا واحدا وأمام الصف يقف مطرب القرية "الريس سليم "وعلى وقع الدف وصوت دق الكفوف وصوت "الريس سليم"يتماوج الصف فى حركات إيقاعية منتظمة وفى جرأة من تعلم أن أحدا لن يراها تقتحم ساحة الإحتفال إحدى الراقصات وهى ترمى على رأسها "شال " أسود كبير تضم طرفيه بيديها من الداخل حول وجهها

يتدلي "الشال"حتى يدارى أنفها، ثم وهى فى هيئة الركوع وفى ثيابها الواسعة الفضفاضة ترقص أمام الصف بحركات إيقاعيأقرب للرياضية منها إلى الرقص والرجال يتقدمون نحوها وهم يدقونعلى كفوفهم ويتماوجون وهى تبتعد عنهم حين يتقدمون ، ثم تعود حين يتقهقرون و تحافظ دائما علىمسافة خطوتين بينها وبينهم، فى تحد واضح ألا يروا وجهها بعد كانت تعبر عنه كلماتهم بين كل وصلة ووصلة من الغناء:

((دونى ودونك للصلااااح للصباح ...دونى ودونك للصبااااح للصباح))

كانت الواحدة منهن ترقص وربما يكون أخوها فى الصف دون أن يعرفها.

فتحيهكانت ممتلئة بعض الشئ وكانت جريئة، لكن حسن ليمكن يدق على كفيه وفقط وإنما على قلبها أيضا فاضطربت.

هى لم تنس أبدا كلمات احدى بنات البلد على مسمع منها :

" حسن وهو فيه زى حسن ، أسمر كحيل العين ، مفرود كييف عود القنا ، لما أشوفه هو وسيد ومحمد أولاد زكريا على طول بفتكر يونس ومرعى ويحيى "ولاد أخت ابوزيد الهلالى تجاوبها أخرى بغنج وتهتك : وانت طبعا نفسك تكونى عزيزة.

- الفجر قرب ,قم ياحاج نم لك ساعة

- لا أنا رايح الجامع

فى صلاة الصبح كان عز الدين يرتل:

((يا أيها الذين أمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين * ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون * ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون " أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون))

فى صلاة الفجر عدد لابأس به من الشباب

سنوات عدة مضت خلا فيها المسجد من الشباب ربما لهذا السبب يكره رجال الأمن عزالدين .

مال الحاج محمد على الامام الشاب قائلا :

- كيف حالك ياعز الدين؟
- الحمد لله يا عم محمد
- خد بالك من نفسك يا ولي، العين عليك!!!
- خليها على الله يا عم محمد المهم صحتك أنت
- تعرف يا ولدي.. النفس ما يرتاح فى صدي إلا وأنا ماشي لصلاة الفجر
- عارف ليه ياحاج محمد؟
- ليه يا ولدي؟
- لان الدنيا ساعتها تخلو من أنفاس المنافقين
- كلامك حلو زى جدك الله يرحمه .

فى طريق عودته, القرية تسبح فى الهدوء بينما تمارس العصافير دورها فى الضجيج على أغصان الأشجارالمتناثرة بين البيوت , قليل جدا هم الذين قابلهمالحاج محمد فى هذا الوقت ذاهبين الى حقولهم.

في هذا الوقت أيضاراحت فتحية بعدما أدت الفريضةتجول بناظريها فى تبة العائلة ، تتصاعد أصوات الذكريات فى رأسها حتى اندفعت رغما عنها تبدد الصمت المطبق على المكان :

- وينك يا غالى ...

قالتها وهى تنظر إلى البوابة حيث كان حسن يقف خلفها منتظرا شقيقهاسيد ليذهبا سويا إلى الزرع وكانت هى تتابع حركاته من بين شقوقألواح البوابة الخشبية الضخمة

ثم نظرت خلفها إلىهناك فى الركن القصي حيثتحلق النسوة حولهاليلة عرسها يغنين على إستحياء ثم جاءحسن يشق جمعهن ويأخذها من يدها إلى بيته راحت تشهق وتقول باكية :

- وينك يا شقيقي .

فى ليلة عرسها لم يعد سيد ليعلق لها الزينات و " الكلوبات " كما وعدها أن يفعل ليلة عرسها، لم ترقص نعمات أمامها كما كانت لتفعل لو انها كانت موجودة .

فيما مضى كانت القرية كلها فى هذا الوقت تضج بالحياة ، الزراع يسحبون خلفهم دوابهم نحو أراضيهم

التجار يحملون بضاعتهم نحو البندر

النساء يعجنّ العجين ويقطعنه الى أرغفة يرصونها على " المصاطبّ فى انتظار الشمس لتنتفخ وتخمر.

ألقى الحاج محمد بنفسه على سريره المصنوع من "جريد النخل" ونسمات الصباح الندية تسري في جسده بخدر لذيذ فاستسلم أخيرا للنعاس

مع الضحي كانت زوجته تترقب صحوه وسيد أصغر أبنائه وحده الذى يجرؤ على الضجيج عند حجرته الخاصة .

وبينما كانت الزوجة و فتحية يتناجيان سمعا صوت الحاج محمد المذعور :

- يا حبيبي يا سيد ...يا حبيبي يا سيدا!

دخلت عليه زوجته فى لهفة وخلفها فتحية وولد سيد

- مالك يا حاج ؟!

- سيد أخوك يا فتحية زارني في المنام...

بقي له زمان ما زارني.

كان لابس أبيض في أبيض وناس بتزفه.

عارفين مين كانت معاه ؟

فتحية بلهفة قالت:

- لازم فاطمة ؟

- أيوه ..

فتحية ندت عنها زغرودة قوية خرجت كأنها صرخة فجاء علي إثرها الأقارب والجيران

تابع الحاج محمد :

- لما ناديت عليه التفت لي وقال وهو يبتسم أنا منتظر هديتك ولدك سيد .

ضربت الزوجة على صدرهاوصاحت :

- اللهم أجعله خير

حين سمع الجمع نبأ هذه الزيجة تضاربت ردود الأفعال .

كبار السن راحوا يتبادلون كلمات الشجن والرثاء .

الشباب قال أحدهم:

- الحاجة فتحية طول عمرها بعقلهأيه جري لها يا تري ؟

أما الطفل سيد محمدزكريا فراح يسأل في حيرة لا حدود لها :

- سيد مين يا بابا؟

- سيد عمك يا حبيبي .

- ال مات ؟

- عمك شهيد يا حبيبي والشهيد حى عند ربنا

أمام البوابة كان شيخ البلد ووجهرجلان يلبس أحدهما البذلة العسكرية

صوته الجهوريراح يفض الجمع من حول الحاج محمد الذي خفبدوره للقاء الضيوف .

فتح لهم المندرةوالدهشة تربك حركاتهثم خرج يطلب الشاي، بينما وقف الجميع واجمين تتملكهم الحيرة .

لحظات ليست قليلة خرج بعدها الحاج محمد مرة أخري يصيح , يخالط صوته البكاء والنشيج :

- الله اكبر يا سيد ..الله اكبر يا حبيبي

كان يحمل بين يديه أوراق مصفرة تفوح منها رائحة السنين

بطاقة شخصية ومصحف صغير وخطاب وبعض نقود فئة الجنية المصري الأحمر الكبير. فتحية ما أن رأت الصورة المثبتة علي البطاقة حتي ألصقتها بفمها تقبلها

وانهمرت دموعهاتبلل الصورة حتي أغشي عليها فأ كب عليها أخوها يحتضنها وسط ذهول الجميع الذين أخذوا يتبادلون الأوراق.

بينما راح الطفل سيد محمد زكريا يقرأ الخطاب إلي آخره ...والشيخ هاشم الغالية فاطمة لهم مني الف مليون سلام

سيد زكريا خليل 5 اكتوبر1973

الفصل الثانى

" وددت لو تبقى القرية على حالها لا تتغير. لانها غالبا ما تغير العالم من حولها"

مثل كل يوم ،في (تبة العائلة) وقبل غروب الشمس ، الصبية يحجلون عرايا إلا من سراويلهم الواسعة،يخلفون ورآءهم غبارا كثيرا يحسبهم الناظر إليهم خيولا عربية أصيلة ومحمد أصغر أولاد الحاج زكرياخليل يتترس بشقيقه سيد هو دائماً ما يقوم بدورعروس الحجلة في فريق العائلةوالثان الفريق المهاجم ثلاثةمن صبية الجيران الأشداء ولم يبق من فريق العائلة سوى العروس في ركن بين جدارين وسليين زكريا خليل وحده أمام الثلاثة .

صوت الحاج زكريا خليل وهو خارج لصلاة المغرب يعلو في غضب :

- كفاية ياولد أنت وهو ، ولييا سيد على الجامع ياولد

وكأنما كان صوته دعوة للحسم ، حين انعقدت دوامة غبار كتلك التي تحدث في أمشير والتي يحسب الصغار أن عفريتاً يدور في وسطها ، أغمض محمد عينيه ولما فتحها كان الثلاثة مكومين على الارض وسيد يحجل نحو البيت يعلن أن العروس في فريقه لا تسقط أبداً .

يومها راح أهل القرية بعد صلاة المغرب يتوافدون على تبة آل خليل لحضور حفل زفاف " سعد " الابن الأصغر من أولاد الحاج خليل ، يستقبلهم " قناوى الطوّاف " منادى الأفراح وهو جالس على " دكة " خشبية نصبت أمام البوابة يصيح بصوت منغم ليجمع نقود " تحية العريس" من شباب البلد :

- خلف الله عليكم يا محبين ، صلاة النبى أحسن

خلف الله عليكم يا محبين والعاقبة حداكم

خلف الله عليكم يا محبين والأمير المتقدم ...

نقط بالفضة ...خلافة خير..خيييير...خيييير....

وكلما دفع له أحد من الشباب ينادى باسمه مقرونا بلقب الأمير المتقدم ، كان الشباب يدفعون نقودا معدنية بسيطة تبدأ من قرش فصاعد ، يأخذها قناوى لنفسه مقابل إطلاق تحية " العريس"

أما إذا كان الذى يعطيه النقود متزوجا فينادى :

- وفلان الفلانى ربى يعوض عليه نقط بالفضة خلافة خيييير..خيييييييير.

فرش شباب العائلة " الحصر" على الأرض ، ثم وضعوا " صوانى " الطعام ، وقام الحاج خليل يدعو الضيوف لتناول طعام وليمة العرس ، تحلق المدعوين حول " صوانى الطعام " ، يجلس حول كل " صينية " أربعة أو خمسة من الحضور ، على كل " صينية " طبق كبير من " الفتة " وطبق " ملوخية " أو " الدريسة " كما يطلق عليها كبار السن ، لكن قناوى الطوّاف وهو متربعا أمام " الصينية "

راح يقول :

- أنا ما ليش فى الفته ، قربوا لى " الخضرة الشريفة " ، يقصد المولوخية .

ولكن ما أن رأى قطع اللحم المدفونة فى طبق " الفته " تظهر حتى راح يزاحمهم بكفه . الحاج أبو الجود راح يشاكس قناوى الطواف :

- أيه الشريفة ما نفعتش معاك يا قناوى .

بينما كان الحاج أبوحنضلانة يشير إلى كم "جلابية" قناوى ويقول :

- أيه يا قناوى يا إما تاكل بيدك ..يا إما تاكل بكمك .

فقال قناوى متوعدا :

- انتم راح تسكتوا ولا أحرّم عليكم اللقمة ؟

سكت ابوالجود ثم وضع يده على فمه ، بينما لم يفطن أبو حنضلانة لما يمكن أن يفعله قناوى فقال له متحديا :

- يعنى راح تعمل أيه ؟

أخرج قتاوى الطوّاف " منديله المحلاوى " ووضعه حول أنفه ثم استدار ليعطى ظهره للطعام وراح يفتعل التمخط فإذا به يطلق دفعات متتابعة من الضراط ، استلقى رفاقه على ظهورهم من شدة الضحك وهم يتركون الطعام رغما عنهم .لم يكن مستغربا أن تسرى موجة الضحك من المكان الذى يتواجد فيه هذا الثنائى قناوى الطوّاف والحاج أبو الجود .جلس قناوى متربعا وحده على " الصينية " يأكل نصيب الجميع ، الحاج خليل أمر ولده الأوسط " زكريا " أن يحضر " صينية " أخرى ثم دعا من كانوا مع قناوى إلى " صينية " أخرى ، ثم قام يوزع اللحم من حلة كبيرة يحملها ولده الأكبر"حسين" ، يدور على الجالسين فردا فردا يعطيه نصيبه من اللحم ، فيأخذه وهو يقول :

- الله أداك .

عاود الصبية لعب الحجلة فى ناحية من التبة .

الحاج زكريا خليل يعنف أولاده إذا لعبوا هذه اللعبة ، كان يعتقد أنها تجلب الفقر، خاصة فى ليلة فرح مثل تلك الليلة ، ليلة زفاف أخيه الأصغرالشيخ هاشم هو الذى غيرمن نظرته تلك، يومها كان الشيخ مدعوا لحفل الزفاف وكانت نعمات بنت قناوى الطوّاف وهى صغيرة تلعب دورالعروس فى فريق أولاد زكريا ، يومها أثنى الشيخ على اللعبة وقال :

- لعبة تعلم الأولادالمروءة، شفت أزاى ولدكسيد بيدافع عن العروسة

- يا مولانا دا لعب عيال!!

- اللعبة دى لو شافهاسيدنا النبى لأحبها!!

- اللهم صل عليه ، كلامك عجيب يا شيخ هاشم ، بس زين

سيد كان يحجل مندفعا بقوة كما لو كان قطارا يدهس كل من يقف فى طريقه وعروس الحجلة خلفه تحجل مطمئنة حتى تصل الى " الحلال " ذلك المكان الذى حدده الفريقان لوصول العروس اليه ، حتى اذا ما وصلت اليه تفك عقالها وتنتهى اللعبة بفوز فريقها ، كانت نعمات بنت الطوّاف فى ذلك اليوم هى عروس الحجلة ، بينما كانت نبوية بنت سعدون هى العروس التى ستزف الى زوجها سعد خليل.
نسوة العائلة اللائي كن يشاهن اللعبة قلن لأمرأه الحاج زكريا

- لازم ترقي سيد الليلة دى ياأم محمودا!!
هى ومنذ كان جنيناً في بطنها ترقيه أبداً لم تنس الكلام الغريب الذى قاله لها أحد الدراويش يوم كانت مع زوجها الحاج زكرياتزور ضريح السيد أبو الحجاج حين أشار إلى بطنها وقال:
- عزه في حياتكم وعزكم في موته ، سيد والله سيد.
عندما وضعته وجاء الحاج زكريا ليراه ، كانت عيناه السودالواسعتان توحيان له برجولة مبكرة فقال :

- سيد إن شاء الله .
ولكن هل صحيح أن الشيخ هاشم قال عنه أنه ابن موت ؟

هى تعرف أن الشيخ هاشم رجل صالح وربما مكشوف عنه الحجاب ، لأشد ما يقلقها كلامه هذا، لكن عمه سعد يؤكد لها دائما أن الشيخ لم يقل ذلك وإنما قال أن قلبه ميت.
سعد أيضاً أطلق على ابن أخيه لقب آخر لازمه بعد ذلكأطلق عليه لقب (أبو قلبين)يومها كان سعدلايزال حديث عهد بعرسوكان لديه نوبة ري ليلية فذهب إلى

زرعتهم وحده ، قبل الغروب بعث الحاج زكريا ولده سيد خلف عمه سعد ليساعده ويؤنسه ، في الوقت الذى كان فيه سعد قد قرر أن يرجع لبيته ليتناول عشاءه مع عروسه ، ثم يعود مصطحبا معه أحد أولاد أخيه ، لما شعر زكريا بوجود أخيه في بيته سأله عن سيد ، فأجاب مستغربا :

- هو جا ورايا؟

- أيوه

- يبقى إختلفنا فى الطريق.

خرجا مسرعين نحو الزرع، فوجداه يدير (خديم)الماء بيد ، ويمسك بالأخرى شعله نار، سريد كان يعلم أن الذئاب تخاف من النار والعصا .

هتف سعد :

- الله عليك يا أبو قلبين!!!

راح زكريا يلهج بالحمد والشكر لله وفيما كان سعد يعتذر لأخيه الأكبر . بادره بالسؤال :

- قل لى يا سعد ايه قال الشيخ هاشم عن سيد؟

- يا زكريا يا خوى لا تشغل بالك . ربنا هو الحافظ.

- ونعم بالله ...طيب الدرويش وقلنا انه مجذوب ...لكن الشيخ هاشم؟!

- يا زكريا ..ربنا لم يعطى علمه ل حد.

صبيان الخضيرات عمال بالفطرة وهذا ما تكسبهم إياه الزراعة أيضا ، حين يصحبهم أبائهم معهم وهم يتوجهون كل يوم الي زروعهم .

بعد حصاد القمح من كل عام يذهب صبية القرية كلها ومن بينهم حسنين ولد فوزي الطوّاف وسيد ومحمود ومحمد اولاد زكريا الي الحقول التي تم حصاد أقماحها يتنادون فيما بينهم :

" يلا نروح نصيف "

فيلتقطون سنابل القمح المبعثرة المتبقية من عملية الحصاد و " الدريس " والتي لم تدركها أيدي الحصادين ، كان حسنين هو أكثرهم جمعا لهذه السنابل ، يأخذها فيهمشمها بين كفيه الغليظتين ويفركها ثم ينفخ فيها فتتطاير أعوادها ،وتبقي بين كفيه حبات القمح الخضراء ، يضعها فوق الساج الحديدي الساخن الذي تثبته أمه فوق " الكانون " المشتعل ، تتقافز حبات القمح الخضراء علي القرص الحديدي فتنضج ، يلتهمها حسنين بنهم، ثم يستدرك فيدخر معظم ما يجمعه وتنضجه له أمه فيملأ كفيه عن آخرهما وينطلق به مترصدا خروج ابنة عمه قناوي الطوّاف من بيتها مناديا لها بنغمة تعرفها :

- " نعمااات .. نعمااات "

فتجري اليه علي الفور تلتقط من بين كفيه حبات القمح الطازجة اللذيذة كما تلتقط اليمامة الاليفة الحبات من بين يدي ألفها ، كذلك كان محمود زكريا يفعل مع "حسنة" أبنة عمه .

وبينما كان الأخوان زكريا وحسين إبني خليل يضحكان حين يلاحظان ذلك ، كان قناوي الطوّاف يسخط ويشمئز حين يري ابن أخيه اليتيم يفعل ذلك مع ابنته فيردد دائما :

- هو دا الـ تقدر تعطيه لها يا فقري يابن الفقري ..

ينظر الرجل الي ابن أخيه الذي يجلس الي جوار ابنته نعمات ، تلك التي قدت من قمر كما لو كان ينظر الي غراب ، فتنقلت منه كلماته الغاضبة :

- وشك وش الشوم ، خايف يقعد قدام البنت طول عمرها ، يوقف حالها .

تسمعه زوجته فتعاتبه :

- حرام عليك يا راجل .

في مثل هذه الايام التي ما بين الشتاء والصيف يدخل الزرّاع غلالهم الي بيوتهم يخزنونها في " الأصفاط " وكذلك يدخل كل عروس بعروسه بعد طول انتظار، فتضج الحياه في القرية بالافراح .

في هذه الأيام يترك المزارعون أراضيهم بضعة أيام قبل أن يحرثونها ويبذرونها بمحصول جديد فينطلق أهالي الخضيرات يرعون أغنامهم في الأراضي لتأكل الأغنام والماعز ما تبقي من حشائش ومن أعواد القمح المهشمة .

قناوي وآخرون غيره لم تكن لهم أراض يزرعونها ومع ذلك كانوا يبعثون صبيانهم بأغنامهم ، فتجد الصبيان والفتيات يسوقون أغنامهم أمامهم الي المراعي وكأنهم فى أيام العيد ، يجلس أحدهم تحت شجره أو نخلة وبالقرب منه أغنامه ،من الصباح إلى ما قبل الغروب ، ومما لا ينساه هذا الجيل من أهل الخضيرات يوم راح موسي وسلطان وبعض الأشقياء خلف أشجار " الاتل " القريبة من الصحراء يقلدون أصوات الذئاب في عوائها ، ارتاع الصبية والفتيات وعلا صراخهم حتي وصل الي مسامع أهاليهم فخرجوا مذعورين ، كان الصبية والفتيات يجرون نحو بيوتهم ، حتي الأغنام أصابها الذعر، راحت تجري علي غير هدي .

في هذه اللحظات تقدم بعض الصبية يتقدمهم سيد ابن زكريا وحسنين ابن فوزي يحملون فؤسهم نحو مصدر الصوت ، يومها وقعت نعمات علي وجهها وهي تجري فحملها حسنين علي ظهره حتي البيت كان عمه غائبا عن البيت في هذا اليوم فتلقته إمراة عمه " الفلاحة " وهي تجري نحو المرعي فلما رأته استبشرت خيرا، وكان لهذا الصنيع اثره البالغ في قلبها فكانت تحبه وتتعاطف معه علي العكس من زوجها ، فتحية أيضا كانت بصحبتها لكنها حين رأت شقيقها سيد يتقدم بينما الصبية يهربون وقفت واطمئنت ، أما نعمات فكانت تجري على الارض غير المستوية فوقعت وأصابتها خدوش في وجهها .

حين رأي محمود زكريا موسي وسلطان خلف أشجار " الاتل " عرف حقيقية ما حدث ، استاء الكبار من تصرفات هؤلاء الصبية واشتكوا لآبائهم ، البعض هون من الأمر وقالو : لعب عيال

لم يتعود موسي وسلطان العمل كبقية صبيان الخضيرات ، لم يعتادوا الذهاب الي الكتّاب أو إلي ساحة الشيخ البغدادي ، فقط تجدهم في الأفراح أو عند الكوبري

أوتجدهم متحلقين حول " السيجة " يلعبون ، فيما بعد راحوا يترددون علي الساحة حين دعاهم عبد الحي ابن الشيخ البغدادي فقد كان قريبا من عمرهم .

في ساحة البغدادي الحاج زكريا وسيد متعلق بيده دائما ما يأخذان مكانهما بين الصفوف المتراصة تردد البردة :

- مولاي صلى وسلم دائما ابداً
على حبيبك خير الخلق كلهم
وانسب الى ذاته ما شئت من شرف
وانسب الى فضله ما شئت من عظم

في الساحة تعودت مسامع الصبى قولهم :

"مصر تحرسها مقاماتوأضرحة آل البيت وأولياء الله الصالحين وأن عبد الناصر قطب كبير فى حجرة الشيخ كانت صورة عبدالناصر وهو يسلم على الشيخ البغدادي معلقة على الجدار.

وحده الشيخ هاشم هو الذى كان يقول كلاما مختلفاكان يقول :

" مصر يحرسها أولياء الله صحيح لكن الأحيامنهم وليس الأموات"

الشيخ هاشم رجل أزهري ، يميل إلى النحافة ، وسيم الملامح ، فى عينيه عمق وحنان ، يتحدث الفصحى إلا قليلا، يحبه كل من يصحبه ولو للحظات قليلة عاش فترة في قاهرة الأربعينيات ، تزوج مبكرا من ابنة خاله الشيخ البغدادى شيخ الطريقة ،على كره من عبد الحى البغدادى وبعض متعصبى الساحة , كان يمكن أن يكون من العلماء الكبار لو لم يرحل إليه أبوه وخاله الشيخ البغدادي ويرجعا به خوفا عليه من الإشتغال بالسياسة.

كان هاشم يفور بحماسة الشباب وغيرة العالم الفقية ، لكنه كان شديد البر بأبيه وخاله ، وكان قد خاب أمله حين عاد من حرب فلسطين معتقداً أنه سيعاد إلى قريته تبدو

عليه ملامح الشيوخ وهو ما يزال في الأربعين يحمل هما لا يدرك الناس كنهه .
أما الشيخ البغدادي فكان شيخ طريقة، رجل طيب لكنه قليل العلم يحسب له أتباعه ومريدوه كرامات عديدة ورغم شعورهم باختلاف ابن أخته عنهم في طريقة تفكيره وصدامه المستمر مع رواد الساحة إلا انهم كان يحبه، فقد زوجه إبنته ولما عاد من القاهرة ،تشرفع له حتى عمل إماما لمسجد القرية الجديد .

يشتبك رواد الساحة مع هاشم رغما عنه واحوا يستشهدون بما أنشئته الحكومة كرامة للشيخ:

... وهل هناك كرامة أكبر من أن يقيموا محطة للسكة الحديد خصيصا للقرية رغم بعدها عن السكة ويشقوا لها طريقا وسط الزراعات ليربطوها بالقرية

يوجه أحدهم كلامه لهاشم متسائلا باستنكار عما كان يريد أن يقوله الشيخ للزعيم ؟

ثم يتابع تسآلاته :

- أيه دخله هو ببنات مازن ؟

- ومالك أنت بالجمعية الزراعية وأنت حتى ما عندك أرض ؟

يرتل هاشم بخشوع آيا ت من القرآن :

-" إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين أمنوالهم عذاب أليم فى الدنيا والأخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون * ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم * يا أيها الذين أمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم "

ثم تابع :

- " يا أيها الذين أمنوا أتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤس أموالكم لا تظلمون ولاتظلمون * وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون *واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون "

- ولا عاجبكم لما حجزوا على أرض مسعود ؟حفيكم يقدر يقول لى دالوقت كام ولد فى الساحة وكام ولد فى سينما آمون ؟!

تأثر البعض بكلام هاشم،مما أثار حفيظة عبد الحى الذى قال محتدا :

- خليك فى حالك يا هاشم ودع الملك للمالك.

- أى مالك يا عبد الحى ؟

- أنت راح تكفر يا هاشم ولا أيه؟

فزع الشيخ البغدادى من خلوته وقد سمع طرفا من الحديث فزجر ولده :

- أخرس يا ولد ، وانت يا هاشم ، أنا قلتلك إن الكلام ده ما يتقال هنا

فى الخلوة راح عبد الحى يكلم والده بحرقة :

- هاشم عامل فيها زعيم وأنت تحميه، زمان أعطيته زينب وما كان يليق لها وأنت ال البلد كلها تتمنى تناسبك !

- يا ولدى ما تنساش أنه ابن عمتك وأن كلامه حق ، أنتيمكن شايف أن الدنيا مش فى صالحه د الوقت لكن أنا أنظر لبكرة.

لم ينجب الشيخ هاشم إلا بنتا واحدة زوّجها كما هى العادة- مبكرا من أبن صديقه المنشاوىالشيخ دردىرالذى درس معه بالأزهر.

في ساحة الشيخ البغداديجد الجميع بغيته فمن هو مثل الحاج زكريا يجد في الذكر لذته ومن هو مثل قناويالطّواف يجد ما يملأ به معدته، وأبو الوفا المجنون يصبح من الأولياءالصالحين.

قناوى الطوّاف لم تكن له أرضا يزرعها ولا تجارة يتعيّش منها لكنه كان مثار حسد كثير من رجال القرية ، كانت له زوجة هى أجمل إمراة عرفتها الخضيرات ، لم تكن من بنات القرية ولا أحد يعرف أين ولا كيف تزوجها ، كل ما يعرفه الناس أنه دخل بها البلد ذات مساء وهو عائد من رحلة طويلة ، فقد كان قناوى و أخوه فوزى من أوآئل رجال القرية الذين خرجوا من القرية كعمال تراحيل ، يومها عاد قناوى بزوجته وعاد فوزى بمال وفير قدمه مهرا لنفيسة بنت الجيران . لم تكن المقارنة بين الزوجتين فى صالح فوزى .

فى بيتين متجاورين ، عاش الأخوان لا يفصل بينهما سوى حائط قصير راح قناوى يعليه مع الزمن . بعض الناس كان يظن أن إمرأة قناوى من بنات الغجر ، لكن معظمهم كانوا يعتقدون أنها من فلاحين بحرى وكان قناوى نفسه يؤكد ذلك فأطلق الناس عليها لقب " الفلاحة" . كان أبو الوفا المجنون كلما رأى الفلاحة يهيج ويجرى فى طرقات البلدة يزعق :

- " بحر سنة ولا تقبل يووووم ...بحر سنه ولا تقبل يووووووم "

الناس يتعجبون يقولون:

- "والله دا ما كلام مجانين ؟!"

الفلاحة أنجبت لقناوى فلقة قمر أسمتها "نعمات" وكأنها أرادت لجمالها الإمتداد والخلود. ورغم أنها لم تنجب لقناوى الولد الذى يتمناه أى رجل ، كان كثير من نسوة البلد يغرنّ منها وكان قناوى يقول :

- مالى بالولد ، يعنى راح أورثه الفدادين !

- بكرة الفدادين تندفع مهر لنعمات...

أما فوزى فلم يلبث أن توفاه الله مخلفا ورآءه ولده حسنين يعانى الفقر وجفوة عمه .

كشأن كثير من أهل الخضيرات يعمل أفراد عائلة خليل بالزراعة في آخر مرة جمع فيها الحاج خليل محصوله من القمح ، قام لصلاة الفجر وأيقظ أولاده الثلاثة حسين وزكريا وسعد ومعهم سيد ابن زكريا الذي كان يستشعر سعادة بالغة وهو يتناول معهم الافطار مبكرا دون بقية الأحفاد ، الذين كانوا يغطّون في نومهم ، خاصة عندما راحت جدته تحتضنه وتدعوا له بالصحة وطول العمر ، توجه الجميع نحو الارض يحمل كل منهم شوكته الخشبية الطويلة ، وقفوا أمام حزم القمح المكومة يرقبون اتجاة الريح ، قال زكريا:

- الهوا جاي إما من الناحية البحرية يا من الناحية الغربية .
ضحك سعد الذي كان مشهورا بمتابعة النشرة الجوية في الراديو وقال :
- تبقي الريح جايه من الشمال الغربي يعنى شمالية غربية .
فقال حسين :
- طيب يا ابو العريف .
أعطي الجميع للريح ظهورهم ،وراحوا يضربون حزم القمح بشوكاتهم الخشبية الطويلة ،حتي بدا لهم أنها تهشمت تماما ، كانت الشمس تتسلق الجبل الشرقي تتطلع الي ثلاثتهم وهذا الصبي الذي يضرب معهم بعصا كانت معه ، فيما كانت زوجة زكريا تطلع عليهم من الناحية الغربية تحمل فوق رأسها جرة الماء التي بيتت فيها الماء ،فصار باردا مستساغا ،جاءت تتهادي وهي تبتسم لزوجها الذي تقدم نحوها ليأخذ جرة الماء

ليحطها علي الارض بجوار النخلة ،وسيد يتابعها فرحا ثم يبالغ في نشاطه ويضرب أعواد القمح ، راح الجميع يتبادلون كوز الماء ، يبلون ريقهم بجرعات من الماء العذب ، وهم يستلقون علي الارض تحت النخلة مستسلمين لنسمات الهواء تجفف عرقهم وتداعب أجسادهم فيشعرون بخدر لذيذ .

ترك الحاج خليل أولاده للحظات ، حتي اذا ما ارتفعت الشمس في جنب السماء راح يستفزهم من جديد :

- يلا يا ولاد قبل الدنيا ما تسخن .

قام كل واحد منهم بشوكته ، يرفع بها حفنة من الأعواد المهشمة فيطوح بها في الهواء ، فاذا بالقش يتطاير مع الريح نحو الشرق معانقا اشعة الشمس، ثم يسقط بعيدا مكونا جرن من " التبن " ، بينما تتساقط حبات القمح علي الأرض أمامهم مكونة جرن القمح ، مع الضحي كان القمح منفصل تماما عن التبن ، معى الضحى جاءت زوجة حسين وأولادها ومعهم الأجولة التي سوف يعبئون فيها القمح ، لكن الحاج خليل علي غير العادة قرر أن يفصل من المحصول حق الله الذى هو زكاة المحصول قبل أن يدخل المحصول البيت ، راح الرجل يكيل القمح بمكيال كان معه ومع كل تسع عبوات يضعها في ناحية من الجرن الكبير يضع عبوة في ناحية أخري حتي انتهى الجرن الي جرنين ، جرن كبير وجرن صغير وهنا حدث الأمر الأغرب في حياته حين نظر الي جرن الزكاة فوجده كبيرا ، كبيرا جدا ، فظن أنه أخطا و أن هذا الجرن حتما هو الجرن الأصلي وليس جرن الزكاة فأ شار إلي الجرن الأصلي وأمرهم أن يعبئوه فى أجولة خاصة ويبعثوا بها الي جماعة من الفقراء سماهم ، كان من بينهم فوزي الطوّاف وأخيه ، استغرب الأشقاء الثلاثة ، فهو بذلك يحرمهم من محصولهم ،ويريد ان يتصدق به، فقال حسين مستنكرا :

- انت راح تتصدق بالمحصول كله يا با وتسيب عيالنا للجوع

رد الرجل غاضبا وهو يشير الي كوم الزكاة الذى بدا فى عينيه كبيرا :

- دا كله مش راح يكفيك يا فطيس!!!

ثم أشار إلي الكوم الكبير والذى بدا فى عينيه صغيرا وقال " ومستكتر الشويه دول علي الغلابه .

صرخ حسين :

- هو دا الكوم الكبير يا والدي .

ثم أشار الي الكوم الصغير وقال :

- هو دا نصيب الغلابه يا حاج ، اسم الله عليك

- انت تحسبني خرفت ، طول عمرك ما يهون عليك .

راح الحوار يحتدم بين الأب وابنه الأكبر، بينما وقف سعد وزكريا متحيرين، ثم قال زكريا لوالده متلطفا :

- أنت عاوز تتصدق بالكبير ولا الصغير يا بوي ؟

فقال الرجل :

- بالصغير

فأشار زكريا الي الكوم الصغير وقال :

- هو دا الكوم الصغير يا والدي .

سكت الرجل ، كان يثق كثيرا في ولده الأوسط زكريا ، تراجع الي جذع النخلة يسند ظهره اليها وعيناه مغرورقتين بالدموع ، مالت زوجة زكريا الي زوجها تحدثه :

- عمي با ين عليه التعب

لكن الرجل الذي تعود علي الجد والإجتهاد، لم تمض عليه إلا أيام قليلة ، عزم بعدها علي الذهاب الي سفح الجبل ليجلب السماد الطبيعي ليغذي بها أرضه ، حريص علي أن يصطحب معه أحد أحفادة ليكون الوريث الذي يواصل ما عمل الأجداد .

نهض سيد فرحا لصِلاة الفجر مع والده وجده ،لعلمه بنية جده اصطحابه في رحلته الجميلة ، تلك الرحلة التي يذهب فيها مع بعض رجال القرية لجلب السماد من عند الجبل .

زكريا يريد لولده مصاحبة الكبار ، كان يرى أن فى مصاحبة الكبار عمر فوق العمر وعقل علي العقل .

ركب سيد الناقة خلف جده ، فى الطريق انضم اليهما الحاج سليم ابو حنضلانه مردفا خلفه ولده عدلي وكذلك الحاج أبو الجود علي ناقته مردفا خلفه ولده حسين، اخترق الركب المدق الشرقي الذي يخترق الحقول ، المدق الذى يفضي الي الصحراء الشرقية ، نظر سيد خلفه فاذا القرية نائمة في وداعة خلف ستائر رمادية تتخللها بعض أشجار الكافور والنخيل ، لمح سيد كلبا صغيرا يمشي خلف ناقة عم أحمد ابو الجود ولاحظ حسين وهو يرمي له بكسرة من الخبز المختلط ب " السخينة " ، كان الحاج خليل يقصر طول المسافة بالحديث مع رفاقه عن حسن الختام ، راح يوجه حديثه لسليم أبو حنضلانة :

- خير ما عملت يا سليم ، الارض ال اتبرعت بها للجامع هي الي راح تلقاها قدامك فى آخرتك

- احسن منها يا حاج خليل شوق الركعات الي يصليها غيرنا في جوف الليل واحنا نايمن ولاهين فى الدنيا

يشترك أبو الجود في الحديث :

- طيب راح تقولوا أيه فى ال لا اتبرع ولا صلى؟

أجابه الحاج خليل :

- الحق نفسك يا ابو الجود .

علق أبو حنضلانة وهو يضحك :

- يا عم هو لما يفوق من الحريم ،

ثم نظر اليه وقال :

- ثلاثه يا مفتري ؟!

يضحك الجميع وأبو الجود يردد :

- خلاص كلكو بقيتو أولي وانا ال ابن .....

يستدرك خليل قائلا :

- يا راجل يا طيب كفايه طيبتك وسماحتك في البيع والشرا .

أمن أبوحنضلانة علي كلام خليل لكنه تابع :

- بس لازم تحمل نفسك مع ربنا وتصلي .
رفع أبو الجود بصره نحو السماء ثم خفضه الي الأرض وكأنما شعر بالخجل ثم قال في صيغة المجد الواثق :
- خلاص توبه نصوحه والله لاصلي أول ما أرجع .
فبادره الحاج خليل في حدة:
- كداب يا ابو الجود لو توبه نصوح تزل تصلي دلوقت قبل الشمس ما تطلع ، أيه ال يضمن لك إنك ترجع ؟
قالها خليل وصوته تخنقه العبرات فساد الجو شي من الرهبة والجلال ، نظر أبو الجود الي صاحبه وراح يبحث عن كلمات مناسب ة للموقف لكن شحوبا مسكونا بجلال عجيب بدا علي وجه خليل منعه من الكلام وخيم الصمت للحظات .
تابع خليل كلامه :
- العمر ما بقي منه كتير عشان نقول لسه راح نعمل .
كانت كلماته كانها تخرج من فوه ة قبر.
أناخ أبو الجود ناقته فجأة ثم نزل عنها وشرع يتوضأ من " قلة " الماء التى كانت مثبتة في احدي الجرابين اللذين يتدليان من فوق ظهر الناقة ،ولما فرغ رمي بعمامته على الأرض يفرشها ، ثم استقبل القبلة ورفع يديه يكبر للصلاة ، كانت الشمس لم تشرق بعد ، أناخ خليل ناقته وكذلك أبو حنضلانه مبتهجين بسبب الاستجابة السريعة من أبو الجود للنصيح ة.
" هو دا حسن الختام " هكذا ردد أبو حنضلانه وهو يري أبو الجود يركع ويسجد

واصل الرفاق رحلتهم حتى وصلوا سفح الجبل ، كان أبو الجود قد اجتاحته موجة فرح جعلته يردد المقاطع التى يحفظها من أغنيته المفضلة وهم يرددون خلفه المقطع الاخير:

- عبادى يا ود عبادى كرباجو ع الهجين

- كرباجو ع الهجين

- أحكم بالعدل يا قاضى قدامك مظاليم

- قدامك مظاليم

- حكيم الصحه فايت جضوا يا عيانين

- جضوا يا عيانين.....

أناخ كل منهم ناقته وسوى الجرابين فوق ظهرها وجعلهما مفتوحين ليعبئهما بالسماد ثم سحب كل منهم مكتله ومسحاته ليجمع السماد المتناثرتحت سفح الجبل ومن بين التلال ، كان سيد يعمل مع جده الذى راح يعلمه كيف يتعرف على السماد المطلوب ، ثم يساعده فى إفراغ السماد فى الجرابين ، فى لحظات الاستراحة كان سيد يسند ظهره على بطن الناقة يمد بصره نحو التلال التى تتلوى تحت أشعة الشمس ثم ينحنى به مع نهاية القبة الزرقاء عند النقطة البعيدة فى نهاية الأفق .

يسئل جده عما وراء هذه التلال .

يعلق أبو حنضلانة على أسئلة الصبى :

الولد ده راح يطلع صاحب عقل كبير.

يجيبه الحاج خليل :

- لازم يكون كل واحد منهم عقله كبير، الزمن ال جاى خطره كبير.

- ربنا يحفظهم يا حاج خليل .

عاد الحاج خليل مع الضحى بحمولة من السماد وأفرغها في أرضه التي لا تتجاوزالثمانية عشر قيراطا، راح يفرشه على الارض حين أنتهى من عمله طلب

(قلة) الماء فشرب ثم نظر إلى ولده وأشار إلى حفيده ثم إلى الأرض ثم سقط ميتا .

سيد أبدا لم ينس هذه الرحلة ولاحديث جده معه أثنائها ، دائما ما يقصه على مسامع محمد حينما يتسامران وهما يسقيان زرعهم ، قال له كما لو كان يحفظه

سرا :

" الأرض يا سيد ما تستغنى عن ملحها والملح عند الجبل يبقى الأرض ما تستغنى عن الجبل "

سأل :

- أيه ورا الجبل دا يا جد ؟

- البحر ال عداه أجدادك جاين من أرض الحجاز

- أجدادى ؟"

زكريا أيضا أخذ عن أبيه أن الأرض لا تعطى إلا من يعطيهالكن معظم أهل القرية كانوا يعتقدون أن البركة حلت في أراضيهم منذ لجوء البغدادي الكبير إليها هربا من الفرنساوية والانجليز فليس غريبا أن يهتف الجميع :

- مدد يا آل البيت مدد، مدد يا بغدادى مدد.

مات الحاج خليل فوق أرضه ، يومها حمل زكريا والده إلى البيت وبعث ولده سيد إلى الشيخ هاشم يستدعيه ليغسّل والده المتوفى ، جاء الشيخ والناس قاعدين ينتظرون تشيع الجنازة بينما كان حسين خليل أمام مندرة الضيوف يروح ويجىء عاقدا يديه خلف ظهره يصيح:

- على ما حكم الله يا والدى...

آدى يوم الفراق يا بوى...

حدجه الشيخ بنظرة قاسية فسكت ، أمرالصبى أن يحضرله بعض أوراق شجر الكافور ليضعه فى ماء الغسل ففعل، وضعوا الجسد المسجى فوق سرير من جريد النخل عليه حصير من نبات الحلفا ، راح الشيخ يغسله ويقول لمن يساعده :

- خلوا بالكم ، قلبوه برفق ، الميت يشعر بما يشعر به الحى ، إن روحه بعد ما لاقت رب كريم معلقة الآن بين السماء والأرض تنتظر حتى يدفن صاحبها .

شىء من الرهبة والجلال يلف المكان .

فى جهة ما من السماء تقف الروح فوق الرؤس ، يكاد الصبى يراها ، الموت والحياة يشتبكان أمامه فى مشهد واحد ، حقيقة لا خيال ، تتردد فى ذهنه الأيات التى سمّعها له الشيخ بالأمس فى الكتّاب :

-" حتى إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون* فلولا إن كنتم غير مدينين * ترجعونها إن كنتم صادقين "

ويتذكر تفسيرالشيخ :

-" خلى بالك يا سيد المقصود هنا روح الانسان وهى تفارق الجسم ..."

حمل الرجال الجنازة على الأعناق ،وحيل بينها وبين النساء ، اتبع الصبى الجنازة حتى المسجد حيث صلوا الظهر ثم صلاة الجنازة ، فى المقابر راح يشاهد القبر يجهز أمامه ، أراد أحد الرجال أن يدفعه إلى الخلف فمنعه الشيخ هاشم قائلا :

- سيبه يتعلم... بكرة هم ال راح يدفنونا

فى ناحية من الحفرة حيث التربة متماسكة، راح الرجل يحفر بالجنب حتى صنع ما يشبه المغارة ليخبىء فيها الجثة ثم رصوا الطوب اللّبن حتى توارت، ثم أهالوا التراب على الحفرة بعد أن خلطوه بالماء ثم كوموا فوقها التراب فصارت الأرض كإمراة حبلى توشك أن تدفع جنينها .

رفع الشيخ صوته قائلا:

- استغفروا لأخيكم ، إنه الآن يسئل

مر هو طعم الفراق ، سيد لن يرى جده مرة أخرى ، هو لم ير جده إلا مصليا ، لطالما ركب على ظهره وهو ساجد ، وملاذا لطالما كان يحول بينه وبين أبيه حين يهم بضربه ، غاديا أورائحا لطالما اصطحبه معه فى رحلاته حتى يوم رحيله .

عاد أولاد خليل من المقابر وجلسوا فى " المندرة" يتلقون العزاء بينما كانت النسوة فى الدار الكبيرة

" يعددن" خلف النائحة :

- مال المصلى اليوم ما صلى

ابريقه انكسر ولا استخار الله

مال المصلى اليوم ما جانى

مليت له الابريق النهارده بالعانى

طريق الجوامع تبكى عليه وتنوح

تبكى ع من كان بيجى ويروح

قوم صلى يابوصلا حلوه

وابريق الصلا مسنود ف الخلوه

حين يموت الكبير ينفرط عقد البيت الكبير سريعا ، لم تمض أيام على موت الرجل وبينما كانت امرأة زكريا تسحب من "صفط" الغلة حفنتي قمح - كما تعودت - لتصنع خبزها وقفت زوجة حسين زكريا فوق رأسها تقول :

- لمى ايدك شويه ، زمن الهيصة خلاص

فردت عليها :

- دا كله من خير أبومحمود مش زيكم كنتم تاكلوا من قته محلوله

قسم الإخوة الأرض ، ست قراريط لكل منهم ، قسموا البهائم أيضا فأصبح لكل واحد منهم حوشا منفصلا ، قسموا حتى الطيور فصار لكل بيت حظيرته ، قسموا الغلال المخزونة، ولما انحازت الأرملة العجوز إلى ولدها الأوسط زكريا أصبح الحوش الكبير و"صفط" الغلال من نصيبه ،والبركة أيضا . أما حسين وسعد فقد بعثا فى طلب فوزى الطّواف ليصنع لكل منهما "صفطا" جديدا، كان فوزى الطّواف يومئذ حى يرزق ويتكسب الكثير من الاموال بفضل حرفة البناء

أخذ فوزى يتردد على بيوت أولاد خليل ، يأخذ من روث البهائم الجاف ويخلطه بقليل من الطين و يصنع منه قاعدة على شكل دائرة ، ثم يطّوف به حول القاعدة ، يطّوف على الحواف تماما كما يصنع الفخار ثم يعلو حتى يصل الإرتفاع قدر قامة رجل ، فتصبح مثل اسطوانة قاعدتها الأرض ومفتوحة من أعلى ولها ثقب فى الاسفل قريب من القاعدة ، ثم يصنع قاعدة أخرى على شكل دائرة لكن هذه المرة أكبر ومثقوبة فى وسطها ، حين تجف يثبت هذه القاعدة فوق الاسطوانة الطينية ثم يطّوف بالطين المخلوط بالروث أيضا فوق هذه القاعدة حتى تعلو ثم يجعل لها نافذة كبيرة ثم يكور فوقها قبة متماسكة ، هكذا حتى يصبح البناء كأنه رجل يفتح فاه على الدوام ، حين فرغ فوزى من بناء " الصفطين " راح حسين وسعد يفرغ كل منهما نصيبه من غلة القمح فى فم "الصفط" ثم يغلقه وحين تحتاج زوجة أحدهم بعض القمح ، تفتح الثقب السفلى وتأخذ ما تريده ثم تغلقه .

سمع فوزى وهو يصنع " صفط " زوجة حسين أنها كانت تتمنى أن تأخذ "الصفط" القديم فقال ممازحا وهو يشير إلى ابنتها:

- انت زعلانه ليه ؟ بكره حسنة هى ال تفتح وتاخد من الصفط القديم !

قالت المرأة :

- ما حد يعرف النصيب

هنا تدخل زوجها فى الحديث :

- والله ما تغلى على ود عمها لو طلبها

سمع زكريا كلام أخيه فدخل عليه بيته قائلا :

- وهو دا العشم برده يا واد والدى ، حسنة لمحمود ومحمود لحسنة.

بينما كانت الزوجة تدارى إمتعاضا باديا على وجهها ، على ذكر النصيب راح فوزى يحكى كيف كان يعمل ليل نهار فى بلاد الفلاحين حتى يتم مهر نفيسة بينما كان أخوه قناوى لا يعمل كثيرا، وفى يوم من الايام وهما يعملان عند أحد الفلاحين فى قرية من قرى الاسماعيلية حيث كانا يبنيان له فى بيته دخلت عليهم ابنة للجيران ، ما أن رأياها حتى ظنا أنها ابنة أحد الوجهاء الأثرياء لجمالها ورقتها ، فوزى سرعان ما كتم شعوره وتطلعه ، لكن قناوى أطلق العنان لعينيه وقلبه ولسانه وسرعان ما تعرف عليها وعلى عائلتها ،فى البداية جاءت الأم تكلم جارتها و تنظر، ثم غادرت وعادت ومعها زوجها ، أعجبا بطريقة البناء خاصة القباب التى كان فوزى يجيدها ، أطال قناوى الحديث معهم ، فقالا :

- تيجى تبنى لنا يا معلم؟

- رد متحمسا :

- يا سلام من عينى دى قبل دى

قالها وهو يمد شعاع عينيه لفلقة القمر التى وقفت خلف أمها ، راح قناوى ينسب لنفسه ما أعجبهم من البنيان وفوزى يسمع ويبتسم ، تطور الحديث إلى حد كبير، حتى قال قناوى :

- تجوزنى بنتك دى يا عم الحاج ؟

أجاب الرجل مجاملا :

- يا سلام دا أنا أحليها لك وأوصلها لحد الباب ، احنا نطول نناسب صعايدة جدعان !

فى اليوم التالى، راح فوزى يبنى فى بيت الرجل غرفة جديدة ،وقناوى فقط يقوم بدور المشرف ،ثم يعود للحديث مع الرجل حينا ومع زوجته حينا آخرولم يحرم من حديث خاطف مع نورا .

ختم فوزى حكايته وهو يقول مبتسما :

ورجعت أنا بالمال ورجع قناوى بنورا وسبحان مقسم الأرزاق .

بعد حياة حافلة بالأحداث فى القاهرة ، الشيخ هاشم يعيش فى قريته الغارقة فى الهدوء والفراغ

لم يجد الشيخ هاشممن الكبارهمةسوى التحلق حول لعبة (السيجة) تحت شجرة أو (سباتة) من الهوص أمام دكان أو في ظل جدار أو صغار يلعبون الحجلة ، يوم أعلن عن الكتّاب في خطبةمن خطب الجمعة لم يأت إلا القليل لكن العدد أخذ بعد ذلك في الإزدياد، سيد كان هو تلميذ الشيخ النجيب ، وعريّف الكتّاب ، تعلم القراءة والكتابة وحفظ من القرآن ربع يس غير أنه لقى معارضة شديدة حين دعا إلى ضرورة تعليم البنات وضرورة حضورهن إلى الكتّاب شأنهن شأن الصبيان ، راح متعصبى الساحة يستهزؤن بدعوته ، يقول أحدهم لقناوى الطوّاف على مسمع من الشيخ هاشم :

- الشيخ هاشم عاوزك تخلى نعمات تروح الكتاب

يرد قناوى باستهزاء أشد :

- عشنا وشفنا

بينما راح الحاج زكريا يستفسر:

- هم البنات تخلقوا علشان كده يا شيخ هاشم ؟

يرد الشيخ هاشم متلطفا :

- يا حاج لما البنت تتعلم وتحفظ كلام ربنا تقدر تربى أولادها وتعلمهم

تدخل عبد الحى البغدادى فى الحديث :

- لكن دى حاجة عمر ما حد عملها من العلما ، لا فى الأزهر ولا حتى أيام سيدنا النبى

- سيدنا النبى قال : " طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة "

- الأمة تأخرت لما حرموا البنات من التعليم وأكبر غلطة ارتكبها علماء الأزهر إنهم حرموا البنات من التعلم فى الأزهر

- انت كمان راح تغلط فى علماء الأزهر

مرة أخرى ينهى الشيخ البغدادى الجدل زاجرا ولده ومتلطفا مع ابن أخته
بعد وفاة الشيخ البغداديإعتزل الشيخ هاشم الساحة وراح يعطى دروسه في المسجد ، كثير من أهل البلدكانوا يعتقدون أن هاشم هو الوريث الحقيقي للشيخ البغدادي في صلاحه وتقواه وحلاوة حديثه وإن كان الكثير منهم لا يعرف بالتحديد ماذا يريد منهم ولهم الشيخ هاشم ؟
متعصبي الساحةأشاعوا أنه يكره أولياء الله الصالحينيحرم زيارة أضرحتهم وذبح النذور عندها ولا يحب مدح سيدنا النبي
" ماذا تريد ياشيخ هاشم ؟

هو نفسه سأل هذا السؤال حين جاء من القاهرة يتصفح وجوه أهل القرية ، يتمتم:

"كما في القاهرة بنات مازن يقمن بنفس الدور في الأقصر وما حولها رقص و...الجمعية الزراعية تستغل المزارعين وتعاملهم بالربا بينما اليهود في فلسطين عيونهم على النيل حتى منابعه.. ترى هل يعى أهل الخضيرات من تلك الخطورة شيئا ؟ أم أننى أعطى الأمور أكبر من حجمها ؟

هم لا يعلمون ماذا قال لي الضابط الإسرائيلي وأنا فى الأسر، حين علم أنى من الأقصر."..... حتى زينب بنت البغدادى تقول لى أحيانا "هو أنت راح تصلح الكون ؟!

شباب الخضيرات إما يعملون في الزراعة أو عمال تراحيل ، بعكس أهل الكرنك والبر الغربي الذين يعملون في السياحة

نزوع محمود زكريا نحو السفر مع عمال الترحيل دفع الحاج زكريا للاعتماد المبكر على شقيقه الأصغر منه "سيد". محمود منذ شعر بخشونة صوته ورأى منابته ، راح يتعامل مع الدنيا معاملة الرجال، سافر هو وأبناء عمومته وبعض شباب القرية مع عمال التراحيل الذين يعملون في أسوان أو في مدن القناة.

كان يشعر أن العمل في الزراعة لن يسعفه أصر أن يعمل "قراونجى" يحمل الخرسانة على كتفه في القصعة الحديدية ويمشى على " السقالة الخشب "كانت يومية القراونجي جنية كامل، وكان هو يطمح أن يتم مهر حسنة أبنه عمه , راح يمشى على السقالة برشاقة وينشد مع رفاقه :

- " شيلنى شيل ياجدع

عمر الكتوف ما ح تنخلع"

حسنة أيضا استدار جسدها وتطلعت اليها العيون ولها أولاد خال ثرى ، محمود يعلم قلة حب إمرأة عمه لهم ويعلم قوة تأثيرها على عمه ، لكنه كان مطمئنا إلى الحب

الذى تكنه حسنة له ومع ذلك راح يسابق الايام ليجمع المال اللازم للزواج ، المال الذى يملأ عينى إمرأة عمه النخلاوية . محمودزكريا يحرص على قضاء رمضان فى البيت مع أهله ، فى كل مرة كان يعود محملا بالهدايا ويعطى ما أدخره لوالده ، يفرح سيد بكسوته التى يهديها إليه أخوه كل عام وكذلك محمد فيسارعان إلى عم جرجس الخياط يحيك لكل منهما ثوبا جديدا يصر جرجس ألا يأخذ أجرا على حياكة ثوب سيد ، هو لا ينسى أبدا ما فعله سيد لينقذ بيته من الحريق .

كانت الشمس يومها تميل نحو الغروب والظلام يفرش ردائه على البيوت فتسارع النسوة إلى لمبات الجاز يملأنها ثم يشعلن الفتيل ويثبتن الأسطوانات الزجاجية فوق الفتيل المشتعل فتشتت الظلام روحية بنت جرجس فى غرفتهم الضيقة المسقوفة بالبوص ، مثلها مثل معظم بيوت القرية ، راحت تعلق اللمبة أعلى الجدار فقفزت قطة على " سباتة البوص" فأسقطت بعض عيدان البوص على اللمبة فكسرت زجاجها ، النار أمسكت بالبوص الجاف فاشتعل السقف الحال وتحول لكتلة نار ، يومها كان سيد يملأ خزان المسجد بالماء فرأى من فوق الخزان النار تتصاعد من بيت عم جرجس فنادى على أصحابه وبعض صبية الكتاب . جمع الصبية الأوانى ثم وقفوا صفا متعرجا من المسجد حتى بيت عم جرجس ، سيد يملأ الأوانى ، بينما راح الصبية يناول أحدهم آنية الماء للآخر ، حتى تصل إلى الرجال الذين تولوا الإطفاء .

رمضان فى الخضيرات له طعم مختلف،يتجمع الصبيان عند الكوبرى يحمل كل منهم صفيحة من صفائح الحديد وقطعة من جريد النخل ثم يبدأون فى الضرب على الصفائح فى إيقاع منتظم وهم يهتفون :

- يا رمضان بكرة صيام. يا رمضان بكرة صيام

لا يتركون شارعا ولا طريقا فى البلد إلا ويسلكوه حتى ينتهى بهم المطاف عند المسجد مع صلاة العشاء بعضهم يدخل المسجد يصلى مع الكبار صلاة التراويح والبعض يظل فى الفضاء الواسع أمام المسجد حين بلغ سيد زكريا العاشرة من عمره قرر أن يصوم

حتى لو لم يتسحر، فى رمضان الماضى كان يلح على أمه أن توقظه ليتسحر معهم لكنها كانت ترفض كان يعتقد أنه لا يستطيع أن يصوم دون أن يتسحر.

فى أول ليلة من ليالى رمضان هذا العام ،قرر أن يسهر ولا ينام حتى يقوم فيتسحر مع أبيه وأمه مثل أخيه محمود، قبل الفجر فوجئوا به معهم فأكل وشرب وسط فرحة الوالدين بالصائم الجديد لكن ما أن حل الضحى حتى شعر سيد بآلام الجوع وما أن حل الظهر حتى كاد العطش يقطع حلقه ، رأته أمه يكافح ألا يبدو عليه شىء، أمرته أن يفطر ، لكنه ذهب إلى المسجد وجد بعض كبار السن بعد صلاة الظهر يبللون مناديلهم بالماء، ثم يضعونها على وجوههم ثم ينامون على الحصر مستقبلين النسائم البحرية التى تستقبلها نوافذ المسجد الكبيرة، نام سيد بجوارهم يبحلق فى سقف المسجد المصنوع من جذوع النخل وجريده ، يتبع ببصره أشعة النور التى تتسلل من الثقوب التى تتخلل السقف، يأبى الجوع أن يدعه ينام مثل الجميع، يفكر فى الرجوع إلى البيت ليفطر، لكن شيئا ما يمنعه ، شىء ما يخترق قلبه مع هذه الأشعة النورانية ، ورغم أنه يتلوى من ألم الجوع، والظمأ حبل يلتف حول عنقه، يشعر بالحياء ، ينظر إلى السقف، يستشعر أن الله الذى فرض الصيام ينظر اليه يرى ماذا سيقول عنه ربه إذا هو ضعف وأفطر ؟ هل سيغضب ؟ أم أنه سيرحم ضعفه ؟

قبل صلاة العصر أبصر من هم أكبر منه سنا محمود زكريا وحسنين فهو وغيرهم يذهبون إلى "الميضة" ويعودون أكثر من مرة يمضمضون أفواههم وينضحون وجوههم بالماء ، يتهم بعضهم بعضا أنهم شربوا بعض الماء فى آخر مرة ذهبوا للميضة ذهبوا ولم يعودوا، بينما مكث هو ينتظر صلاة العصر، وقف فى الصف يتحامل على نفسه، لمحه والده الحاج زكريا، أمره أن يعود إلى البيت ليفطر لكنه أبى ألح عليه أبوه فقاطعة الشيخ هاشم : سيبه يعنى هو راح يموت.

. ما هو بيطلع فى الروح آهه ...

. يا شيخ أحسن الظن بالله .

فى البيت ومن بعد صلاة العصر حتى الغروب تركت الأم طبيخها وراحت تتحايل على وليدها أن يفطر وهو يأبى تقول :

- يا ولدي ربنا غفور رحيم وأنت صغير دا ال أكبر منلمصطفى ورمضان اولاد الجيران فطروا .

سيد يأبى أن يفطر وبينما أمه تحاول معه . سمع صراخ فتحية عند الموقد والنار فوق إناء الطعام وتشرئب لتمسك بالأخشاب الجافة بجوار الفرن وسقف الغرفة المغطى بالبوص الجاف، صرخت الأم لم تستطع النهوض لتطفىء الناولكن سيد طار كما عصفور وراح يطفىء النار بالتراب، كما لو كان عملاقا ينزع عن الأرض ترابها يومها أفطرت الأسرة كلها على التمر والماء فقط.

يحرص سيد على الإلتصاق بشقيقه محمود فى الفترة التى يمكث فيها بالقرية ، يسمع منه ما عاينه فيالمدن المختلفة ، فى أسوان حيث كانوا يبنون السد العالىفى السويس ، الأسماعيلية ، الشرقية ، بورسعيد ، ولا يفوته السؤال عن حسنين ذلك اليتيم الذى شغل أمره كل أهل القرية منذ ذهب مع عمال التراحيل ولم يرجع .

لم يظن أي من الأخوين قناعي وفوز أن يعكر صفو علاقتهما بعد الزواجشيء

فيكل مرة كان يعود فيها فوزى من عند أخيه قنايوكانت نفيسة زوجته تنكد عليه بقية ليلته, تقول:

- انت جيت من عند الفلاحة؟!

ورغم أنه يجئ بعد العشاء مباشرة الا انها تقول :

- ما لسه بدرى

وهو لا يمل من قوله :

- أنا جيت من عند أخويا والفلاحة دى امرأة أخويا, عيب عليك يا نفيسة خافى من ربنا .

لكن نفيسة كانت تنتهز أى فرصة لتنفر الأخ من أخيه, لم تدر أن نار هذه الكراهية سيكتوى بها أعز انسان لديها .قناوى بدوره كان يكره نفيسة زوجة أخيه كانت تعيّره بفقره وفقر زوجته وتتعالى عليهما بما كان يغدقه عليها أهلها من مال وخيرات ، أبدا لم تغفر لزوجها أنه ذات مرة حمل طبقا من "الطبيخ" لاخيه وزوجته فى يوم من أيام شدته ، وحتى حسنين ولدها وفلذة كبدها كانت تعنفه لو أطعم معه ابنة عمه من أى طعام. بينما كانت الفلاحة تغزل برجل حمار كما كان قناوى يردد دائما ويقول :

- امرأتى أم نعمات ربنا يخليها لى, عمرها ما خيبت ظنى تربى طيورها وتطعمنا كل خميس ما لذ وطاب ولا عمرها اشتكت من فقرى وصبرت لحد ما ربنا فرجها .

حاولت الفلاحة أن تتقرب من نفسية, لكن جمالها حال دون ذلك وليس نفسية فقط ولكن كثير من نساء القرية كن يتحاشينها.

فقط الشيخ هاشم هو الذى سمح لامرأته أن تزورها وأن تستقبلها .

وبمرور الأيام راحت تتسع دائرة معارفها يوما بعد يوم لما رأوا من حسن عشرتها قناوى فكان يزداد يوما بعد يوم شرها نحو المال ومصاحبة اصحاب المال والنفوذ فى القرية .لدرجة أنه راح يستغل تطلع الشباب الأثرياء للفوز بابنته نعمات . نعمات منذ نعومة أظافرها يلفت جمالها الأنظار أراد قناوى أن يغذى هذا الأمر فلم يجد حرجا أن يسمح لها وهى فى الثامنة من عمرها أن تلعب مع الصبيات تلعب دور عروس الحجلة . كما حدث ليلة زفاف سعد خليل وكان دائما ما يختار لها فريق سيد ابن زكريا .هى أيضا أدركت مبكرا ما تمتلكه من جمال وما يمكن أن يحقق لها من أمال وطموحات . وفى نفس الوقت تشعر بحب إبن عمها لها فكانت فى حيرة من

أمرها .قناوى كان قد قاطع أخيه حتى مماته ،ومع كل خطوة كان أبن أخيه اليتيم يخطوها ليتقرب منه ، كان هو يبتعد كراهية لأمه و رغبة فى إنتقاء زوج ثرى لإبنته نعمات.

الغريب أن الود والحنان جاء من ناحية الفلاحة ، تسبغه على إبن أخى زوجها ، فكانت تسمح له بمحادثة إبنة عمه ورؤيتها على مرأى ومسمع منها، و تحسن إليه بعيدا عن زوجها. وكثيرا ما كانت تكلم زوجها فى أمره تقول له:

- ولد اخوك ، من لحمك ومن دمك ، هو الوحيد ال تقدر تتسنّد عليه لما تكبر ويشيلك.

فيجيبها :

- لو فيه خير يشيلنى علشان أنا عمه ، من غير ما يطمع إنى أعطيه نعمات ، لكن دا خبيث زى أمه وأخواله.

. الولد يحبك ويتمنى رضاك .

. راح نشوف محبته بعد ما تتزوج نعمات.

. الولد يحب بنت عمه ويحبش يشتغل ويكسب

يغضب قناوى ويصرخ :

-إياك تكلمينى فى الحكاية دى

تصرح المرأة بدورها :

- يا راجل إفتكر أخوك قد إيه كان يحبك ويخدمك .

كان قناوى واقفا فجلس ثم أسند ظهره للحائط قائلا : آه يا أم نعمات ليه بس بتتكى على الجرح ...

آه يا فوزى يعز علىّ حد يفكرنى بيك وأنا ال طول عمرى ما نسيت، فوزى ملاكان أخوىّ وبس ، دا كان يخاف على زى ما يكون أب ، كان صاحب وخليخفف عنى حمولى، لكن أنا كرهت الفقر والحاجة وبنتى لازم تعيش بعيده من الفقر والهم مع واحد يصونها .

. ما حدش يصونها غير إبن عمها .

. يا وليه إنت مش شايفة كل أولاد العائلات بيتمنوا تراب رجليها ؟

. أنا شايفه ناسفاسقين عيونهم ما يملاها غير التراب

. طيب خلاص خلاص

يومها خرج قناوى من بيته ليجد إبن أخيه قادما من بعيد يحمل ملامح أبيه كلها، ود لو يأخذه فى حضنه لكنه لم يزد على قوله :

كيف حالك يا حسنين.

. فيرد حسنين فرحا : الحمد لله يا عمى .

. محتاج شى

. لا شى غير رضاك يا عمى .

يمضى قناوى مسرعا قبل أن يضعف أكثر من ذلك وسرعان ما يقوى عزمه السابق حين يرى مرسى أو سلطان يتقربان منه كل على حده.

الشيخ هاشم لاحظ ذلك فراح يكلم قناوى بطريقة غير مباشرة : المال زايل يا قناوى .

يرد قناوى : والفقر أخو الكفر يا عم الشيخ .

كبر حسنين وكبرت نعمات وشي من العطف يربط بينهما ، رغم حرص والدها قناوى الطّواف على إبعاده عنها، وحرص نفيسة على تزويج ولدها من إحدى بنات أخواله ، تبكته دائما :

- عاوز تتجوز واحده ما نعرف أمها حلبيه ولا غجريه ؟

يرد حسنين بعزم :

- لكن دى بنت عمى.

- عمك ..؟ هو عمره سأل فيك ؟ ولا عمرك شفت منه حنيه ؟ دا لولا أخوالك لمت من الجوع .

ورثت نعمات حسن أمها ، بيضاء كقطعة ثلج نزلت من السماء ، يتدلى شعرها حتى خصرها كليل يسيج كنوزه وحسنين عاشق متيم ، يراها مهرة أصيلة وهو خيَالها، يردد دائما :

- بنت عمى ، لحمى ودمى ...

حتى لطمه عمه ذات يومموضربه ، يومها كان موسى ابن شيخ البلد وسلطان أبوالعز - دون اتفاق - فى زيارة لقناوى ، كلاهما سبق وطلب منه يد نعمات ، ظل قناوى يراوغهما وهما يتنافسان، ما أن يعلم أحدهما بزيارة الأخر لقناوى فى بيته حتى يبادرهو بالزيارة مجددا يحمل معه الهدايا .

وصل التنافس لحد أنهما إجتمعا عند قناوى ذات مساء وحسنين فى الجوار يراقب ذلك كله ، شعر حسنين بالعار راح يصرخ :

- عمى حط راسنا فى الطين ، عامل مزاد فى بيته على بنته ، بنت عمى

أمه تصرخ أيضا :

- واحنا مالنا ، هو حر ، دى مش ليك يا ولدى

- أنا رايح له

تتعلق أمه برقبته لكنه ينفلت منها .

دفع حسنين باب عمه بقوة ، انتفض موسى وسلطان بينما نظر قناوى لابن أخيه بحنق قائلا:

- مش فيه باب تخبط عليه

- جيت أحضر واعرف مقدار مهر بنت عمى ، حتدفع كد أيه يا موسى ؟

رد موسى متلعثما :

- تلات خواتم وغويشتين وعقد

- وانت يا سلطان ؟

- كدهم مرتين

- لكن فيه ال راح يدفع اكتر

- مين ده ؟

- أنا

انبرى العم محتدا وهو يلطمه على وجهه :

- انت يا كحيان ؟

- أيوه أنا يا عمى

ثم صاح بأعلى صوته :

- نعمات ..نعمات يا بنت عمى ..قولى لهم يا نعمات ، انت مش جاموسة فى السوق

هجم قناوى على حسنين يلطمه ويضربه بالعصا وحسنين واقف كتمثال فخرجت نعمات وأمها يتلقيان عنه الضربات ويصرخان :

- حرام عليك يا راجل

- حرام عليك يا با

أحاطت نعمات رأس ابن عمها بذراعيها تمسح الدم ، تنظر إلى موسى وسلطان باحتقار وتصرخ :

- واقفين تتفرجوا ...

إمتلأ البيت بالجيران والأقارب على أثر صراخ نعمات وأمها ، يلومون قناوى على

فعلته ، تحامل حسنين على ذراعى نعمات وإمرأة عمه وقال :

- يشهد علىّ كل ال هنا أن ما يحول علىّ الحول إلا ومعايا مهر بنت عمى ، وزن يديها الاتنين دهب... الجميع راحوا يضغطون على قناوى :

- حرام عليك جوزها له ...

- دى بنت عمه وهو أولى بيها !!

- عيب عليك البنت عاوزه ود عمها !!

لم يستطع قناوى أن يرد ، بينما انسل موسى وسلطان من بين الناس دون أن يشعر بهما أحد.

لم يكن سيد يوما سعيدا كما كان في ذلك اليوم الذى اصطحبه فيه والده لزيارة مسجد وضريح السيد أبو الحجاج.

أبو الحجاج أسم له وقع خاص في مخيلة الصبى منذ سمع بعض رواد الساحة يقصون حكايته مع كاهنة المعبد.

المسجد خلف البوابة الفرعونية الضخمة التي ينتهى عندها طريق الكباش القادم من الكرنك ، حين رفعت الحكومة الطمى المتراكم حول المعبد وداخله بدا المسجد مرتفعا

عن مستوى الارض فكان لابد من وجود درج سلم للوصول إليه .وقف الصبى شاردا يفكر ، ترى أين كانت الكاهنة حين لقيها ابو الحجاج ؟

وكيف كانت ناقته تلك التى تمددت مساحة المسجدقبر المساحة التى افترشها جلده المسلوخ؟ وهى المساحة التى سمحت له بها الكاهنة حين طلب ابو الحجاج منها الاقامة بجوارها.

حين رآى الصبى أرضية المسجد مفروشة بلون بنى قال:
- جلد الجمل دا يا با ؟
ضحك الرجل وقال :

- لا ياسيد ، حين قال لك الحكاية دي ؟
تعال يا سيد سلم على الشيخ وأقرالفاتحة
راح الصبى يتخيل ملامح الرجل الذى يرقد تحت هذا الضريحذلك الرجل الذى أسلمت الكاهنة على يديه وبنى هذا المسجد الذى تطاول مأذنته أعمدة المعبد ويتخيل أيضا كيف جاء مهندس الملك يريد هدمه فشلت يده

بينما كان الحاج زكريا مستغرقا في أوراده وصلواته انساح سيد في أروقة المسجد وقف يطل من النافذة الغربية للمسجد فإذا به يرى ...

أعمدة ضخمة... تماثيل مهيبة... رعدة شديدةسيطرة عليه فجفل للخلف يستنجد..

فإذا والده يصلى عند المحراب وضريح الشيخ يسبح في السكينة والهدوءعاد ينظر من جديد وكأنه استمد قوة عجيبة عالم غريب ورهيب يطل عليه لأول مرة في حياته من خلف نافذة المسجدراح يثبت نفسه :

" أخاف من تمثال لا ينفع ولا يضر؟"

التمثال الضخم ذكّره بكلام شيخه عن أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام– حين علق الفأس على كتف الصنم الكبير بعدما كسّر الأصنام الصغيرة الملتفه حوله ، ليوهم قومه أن هذا الصنم هو الذى كسر الأصنام التى تصغره حجما ، كان يحتال ليفهم قومه أن هذه الأصنام لا تستطيع أن تفعل أى شىء .

صفحة النيل تتراءي له من بين الأعمدة ثم يدخل فجأة من بوابة المعبد التي تفضى إلى "كورنيش" النيل فوج من السياح فى مشهدغريب. رجال يرتدون قمصان وسراويل قصيرة تبرز منها أذرعتهم وأرجلهم ، يعتمر بعضهم قبعاتنساء ثيابهن قصيرةأيضا و يرسلن شعورهن خلفهن راحوا يطوفون حول الأعمدة ويقفون مشدوهين أمام التماثيل .

تثور الأسئلة فى ذهنة:

" هل يعبد هولاء الناس الأصنام ؟"

الرسوم والصور المنقوشة على الأعمدة والجدران لفتت نظره ، رسوم بديعة وحروف غريبة لكنها متناسقة ، راح يتسائل بينه وبين نفسه ، ترى أى رسالة أراد من نقش هذه الأشياء أن يوصلها لنا ، أم هى من أعمال السحر.

تذكر أيضا قصة سحرة فرعون ، كان قد حفظ أيات هذه القصة بالأمس وسمّعها لشيخه ،راح يثبت نفسه بأنه لا يجب أن يخاف فى نفس المكان الذى ثبت فيه سيدنا موسى عليه السلام ؟"

راح ينظر فى ساحة المعبد تدور فى ذهنه أسئلة حيرى :

" ترى أين كان يقف السحرة لما رموا حبالهم وعصيهم فتخيل سيدنا موسى من سحرهم أنها تسعى "

راح يردد الأيات :

" لاتخف إنك أنت الأعلى * وألقى ما فى يمينك تلقف ما صنعوا * إنما صنعوا كيد ساحر * ولا يفلح الساحر حيث أتى * فألقى السحرة سجدا * قالوا آمنا برب هارون وموسى "

بنت صغيرة في نفس عمره تقريبًاكانت تشد يد والدها وتشير نحوه من بعيد جاء صوت أمها- على ما يبدو- تنادى :

- إيرى ... إيرى ثم كلام لم يفهمه
انتبه على صوت والده :

- تعال يا سيد
أشار لوالده من خلال النافذة وسألهن هؤلاء الناس
- أجانب ياولدى
- يعبدوا الاصنام؟!
- لا يا سيد ، فيهم نصارى وفيهم يهود و.
- فيهم نصارى زى عم جرجس الخياط؟
- أيوه
- واليهود؟
- ربنا يكفينا شرهم يا ولدى

في طريق خروجهما من المسجد اعترضهما ذلك الدرويش الذى تذكره الحاج زكريا على الفور حاول أن يتخلص منه بلطففقال الدرويش :

- لا تتعلق به خليه فيما هو له
- أنت قلت إنه عزنا
- عزكم من بعده

- فلل الله ولا فللك ياشيخ روح

رغم محبة الحاج زكريا لزيارة أولياء الله الصالحين إلا أنه يكره هؤلاء الدراويش الذين يدعون معرفة الغيب .عند بوابة المسجد كانت مجموعة من السائحين تريد الدخول ، عامل المسجد أعطى النساء "عباءات" بيضاء تستر أجسادهن ونعال مخصوصة لدخول المسجد ،كانت من بينهم (إيري) الصغيرة تمسك يد والدها وهي الخضراء تشع بالفضول ، حين رأت الصبى في يد والده ميزته أنه هو من كان يطل من النافذة بوجهه الاسمر الهم دان "بطاقية " بيضاء .

ابتسمت له وناولته قطعة من الحلوى فيما كان أبوها يلتقط لهما صورة فوتوغرافية

الحاج زكريا قال لولده مداعبا :

- افرح ياعم صورتك ح تروح بلاد بره

من يومها وهويتمنى لو تطبع صورتهفي مخيلتها , كما انطبعت صورتها في خياله وباتت تراوده في أحلامه

ألبرت يوهان أستاذ الدراسات الشرقية بجا معة "هومبولت" بالمانيا كانت أبحاثه ترجح أن "موسى" علية السلام نبى اليهود ولد في قرية من قرى جنوب الاقصر , لذا كان يتردد كثيراً على آثار هذه المدنية، يستنطق النقوش المبثوثة على الأعمدة والجدران ، علها تبوح له بأسرارها فلم يجد شيئاوحين رأى وجه الصبى خلف النافذة , قاده نحوه شعور غامض وخيوط روحانية راحت تجذبه نحو ذلك المبنى الذى تختلف أعمدته عن أعمدة المعبد .لمرشد السياحي قادهم نحوالمسجد.ألبرت رجل علم لا يحيد أبداً عن المنهج العلمي, لكن تظل للقلب أيضا سطوته

لماذا ينجذب هكذا نحو هذا المبنى ويشعر بروحاقي جديدة ؟

حين رأى ألبرت الصبى ووالده فى لباسها القروى خايلته سيما الأنبياء والقديسين وحين دخل المسجد لفتت نظره بساطة المكانفقط منبر خشبى وفرش مبسوطة

يصلى عليها الناس يضعون جباههم على الأرض فى أكثر وضع يمكن تصوره للتواضع والتذلل لله.تمنى ساعتها لو كان معه فى هذه الرحلة مساعده اليهودى " يعلون "، ربما كانت هذه الرحلة تغير من نظرته للمصريين .

هو أبدا لم ير يعلون أو أحد من طائفته فى تلك الصورة من التواضع و الخشوع

لم يستغرب أحد من المصلين وجودهم فى المسجد فقط نظرات الود والترحيب ، كان المرشد السياحى يشرح لهم عقيدة المسلمين فى موسى وعيسى ، كان ينطق باسم النبيين الكريمين يشفعهما بقوله :"عليه السلام"

الفصل الثالث

" يمكن للارواح أن تروح .حتى ولو لم يكن مكتوبا على الاجساد اللقا "

فى بيته فى حى"تشالونى بروغ" فى برلين قبل الغروب ومن خلال نافذة مكتبه راح البرت يوهان يراقب ابنته" إيرى " تتجول مثل فراشة بصحبة "شارل" ابن مساعده اليهودى "يعلون" فى حديقة المنزل، والولد لم يعد ولاالقد صار شابا ناضجا. هو يعلم أنها مثله تعطف عليه لكنه لا يريد لهذا العطف أن يتطورلم يتمالك نفسه فنادى عليهافى شىء من الحزم تركت ايرى الشاب البائس على وعد أن تعوفجلس ينتظر. جلست إيرى على المقعد المواجه لمكتب والدها تخمن فيما يا ترى يريدها والدها؟ وان كانت تتوقع أن يكون الأمرمتعلق بشارل .دخل الرجل فى الموضوع مباشرة وهو يركزبصره فى عينى ابنته :

- أنا لا أريد أن يتحول هذا العطف الذى تسبغينه على شارل الى .....

لم يكمل الرجل كلماته , أطرقتإيرى برهة ثم بادلته النظر بقوة أيضا وهى تقول

-لا تقلق يا أبى .

قال الرجل :

- شارل حتما سيتبع أبيه وهذا البؤس الذى ترينه ربما يتحول الى بأس يحرق كل من حوله.

تقمصت الفتاة دور الطبيب النفسى وقالت :

- هو لا يريد أن يذهب مع أبيه وفى نفس الوقت هو لا يشعر أنه فى بيته أو وطنه .

قال الرجل بخبث :

- وأنت تريدين أن تشعر يه بذلك ؟

- ماذا تقصد يا أبى ؟

- يا ابنتى هذه ليست مشكلة شارل وحده, انه ميراث مأزوم يحمل ونه من القدم, مشكلته ليست وليدة اليوم ولا تظنى أن الحب سيشعره أن هذا بيته وأنها هـ وطنه ،أى مكان يحبه الانسان يمكنه أن يتخذه وطنا لكنهم فى الغالب لا يحبون المكان الا اذا كان لهم خالصا.

- شارل تخلص من ذلك تماما يا أبى .

- شارل لا يستطيع أن يتخلى عن أبيه ولا عن حلم أبيه وأجداده ، كما أننى لا أريد أن تكونى أنت ثمن شفاءه من هذا .

- رغم انى لا أفكر فيه هكذا لكنى ألمح شبهة عنصرية فى كلامك يا أبى .

- ابتسم الرجل ثم قال :

لا يا ايرى لست متعصبا ولكنى أريد أن يكون بقاءه هنا نابعا عن عقيدة وحب لا عن علاقة حب خاصة.

- لا أفهم يا أبى .

- يبقى لأنه يحب أن يبقى سواء معك أو مع غيرك ، هل فهمتى الآن ؟

- ابتسمت الفتاة ابتسامة خجلى وهى تقول : فهمتك الأن يا أبى ، أنا أعتقد ان شارل لدية الاستعداد هو فقديحتاج المساعدة , هل تستطيع أن تحصل له على فرصة لدراسة الفنون المعمارية ؟

- أنا أخشى أن يظن يعلون أننى أفرق بينه وبين ولده فى الوقت الذى استودعه أمانة عندى وأنا لا أحب أن أبدو كمن خان الأمانة .

- اذن دع هذا الأمر لى .

كلمات بسيطة قليلة ثم تركت ايرىالشاب وحده فى الحديقة، سارعت الى غرفتها تغلقها على نفسها،راحت تستلقى على سريرها تستدعى صورا شتى من علاقاتها بزملاءها وأصدقاءها وأقاربها من الشباب لكن صورة غريبة راحت تزاحم هذه الصور و تلح عليهابشدة , صورة صبى يطل من نافذة عتيقة, قامت من فورها الى "البوم" الصور تقلب الصور بحثا عن هذا الصبى, حين وجدت الصورة راحت تتأمله وهو واقف بجوارها يلتقط الحلوى بعد تردد بينما عيناه تعلقتان بعينيها, ترى كيف هو الأن بعد هذه السنوات؟.

عادت تفكر فى شارل ذلك البائس الذى يعيش معهم ويريد أبوه أن يصحبه الى الشرق ، الى أرض ليس بينهم وبينها أى رابط غير الأساطير كما سمعت من أبيهاترى هل يمكن أن يكون ما تشعر به نحوه حب أم هو العطف والاشفاق ؟
حين كان شارل يجلس منتظرا إيرى ، شعر بأن شيئا ما كان يدور بشأنه بين إيرى ووالدها ، راح يتحدث بغضب كما لو كان يتحدث مع القدر:

تسئلنى ماذا أحب ، إيرى أنا لا أحب سواك ، لا أريد أن أسكن إلا فى عينيك ، لكن أنا هنا لا أستطيع أن أمد يدى لأقطف وردة لأهدها لك ، لا أستطيع أن أقطع امتداداتى ، أبى ، حلم أبى وأجدادى ، فيما بعد ربما أستطيع كما يقول أبى– أن أعود ذات يوم ممثلا لوطن عظيم ، ربما سفير مثلا ، يومها سيكون لى ما أملكه ، سيكون لى وطن ومن يدرى فربما تذهبين معى اليه.

صورة إيرى أيضا ظلت عالقة بذهن سيد ، تطل عليه من عالمها السحري، عالم المستحيل ،لكن الولد أيضاً أحلامه تحوم نحو المستحيل , هو دائماً ما يعشق التحدي .
هذه المرة كان خصمه يقف على أرض صلبة وذراعه طويلة , طويلة جدًوهى تماما

كما رأها أول مرة ,غير أنها فكت ضفيرة شعرها وأرسلته خلفهاريح تعبث به ، بينما كان هو يحجل على رمال متحركة في صحراء شاسعة

ضربة واحدة من يمينه تكسرت بعدها هذه الذراع الطويلةوتقدم نحوها يضمها إلى صدره ويتذوق لأول مرة هذه اللذة ، لذة الجنس الآخر
حين أيقظه أبوه لصلاة الفجر استولى عليه خجل شديدفاتته الركعة الأولى فأتمها منفرداً وعيون الشيخ هاشم ترمقه من بعيد
لم يختم صلاته ويسلم على الشيخ كما تعود , خرج مسرعاً فناداه الشيخ فلم يجد بداً من الرجوع , وضع الشيخ يده على شعره المبتل وقال لوالده الحاج زكريا :

- العيال كبرت يا حاج

والدته التي سمعت خريرالماء وهو يغتسل قبل أن يهرع إلى المسجد، قالت وهى تعد الفطور :

- ولدك كبر ياحاج
- خلاص نزوجه هو ومحمود في ليلة واحدة

من يومها وسيد لا يستطيع أن يحد النظر في عيني الشيخ لمعنى والده .

شباب الخضيرات يأنفون من العمل في السياحة , وحده يوسف الحصري هو الذى عمل في فندق (ونتر بالاس) فظهرت عليه سريعاً آثار الدعة والترف .

محمد الحصرى كان أمهر رجل يصنع الحصر التى يفترشها الناس على الأرض ، مهنة صعبة وقاسية ، كما أنها لم تعد تدر عليه الدخل المناسب فلم يعترض على عمل ابنه فى السياحة.كان الرجل يصطحب معه ولده يوسف حين يذهب الى شاطىء ترعة الكلابية يقتلع نبات الحلفا بالمنجل ذى الاسنان الحديدية المشرشرة ليستخدمها فى صناعة الحصر، كان يوسف يتأذى من أعواد الحلفا التى تجرح كفيه الطريتين كما لو

كانت شفرات الموسى ، بينما كانت يدى الرجل المتشققة ذات الجلد الميت قد اعتادت على ذلك .

هو لا يريد لولده أن يعانى ، لكنه أيضا لا يريد لولده أن يهجر صنعة أبيه وجده فربما يحتاجها ذات يوم .حين دخل يوسف الفندق لأول مرة تعثرت خطواته.

يكاد يرى ملامح وجهه على الأرضية أنوار المصابيح تكاد تحوّل الليل إلى نهار

السائحات وأجسادهن العارية. غرف النوم التي ينامون فيها..دنيا ثانية...

بينما فقد عقله تماماً عند"حمام" السريحة.وتعرف على نوع آخر من التصييف غير الذى يمارسه ابناء قريته ، هنا الأجانب يتجردون من ملابسهم إلا ما يستر العورة . مأكولات عمره كله لم يذق مثلها...ولأول مرة يرى واحدة من بنات مازن وهى ترقص في الصالة والأجانب يشاهدونها دنيا أخرى غير دنيا الخضيرات غير بيتهم .بيتهم الذى ترش أمه أرضيته بالماء لينام الترابحتى لا يثور غباره ،ترشه فقط حينما يكونوا في إنتظار ضيف ، أو في الظهيرة القائظ

في غرفات الفندق رأى صندوق ينبعث منه هواء بارد سمعهم يقولون عليه (أير كوندشن) ومراوح معلقه في السقف بعدما تعرف على هذه الحياة الجديدة ،كان لا ينام فى بيتهم إلا إذا قامت أمه فوق رأسه تهش الذباب وتجلب له الهواء بمروحتها اليدوية ، حتى لا يترك البيت ويسكن البندر.

مع الايام كلت يدها وقويت رغبته فى الرحيل.

كان الشيخ هاشم يرى فى سيد زكريا وحسن رضوان ويوسف الحصرى أولاده الذين لم ينجبهم ، كانوا هم أكثر من حفظوا معه من القران الكريم وسمعو منه كثير من الدروس ، راح يغرس فيهم مبادئ الاخلاق والايمان التى تحتاجها القرية ، كان يريد ان يغير بهم أشياء كثيرة لا يرضى عنها ، حتى ظن كثير من الناس فى الخضيرات أنه يريد أن ينافس الساحة فى جذب المريدين والاتباع .

فى كل مرة كان يعود فيها يوسف الحصرى إلى البيت يتمزق فؤاده بين رغبته فى البقاء بين أهله ورغبته فى سكنى البندر ، حيث الحياة التى تشبه إلى حد ما الحياة فى ونتر بالاس .لكن يوسف الذى تعود الهدوء لم يصبر على صخب الحياة فى المدينة، شعر ذات يوم قبل الغروب بوحشة شديدة فترك المسكن الذى كان قد استأجره ويمّم وجهه نحو موقف السيارات ، لم يجد سوى عربة متهالكة ، ينتظر صاحبها مضطرا لا يمانع فى ركوب الصعب ... ركب يوسف الصعب ، أوصله صاحب العربة بعيدا عن مشارف القرية .

القرية بعد العشاء شىء آخر ، خاصة فى ليالى الشتاء ،هدوء رهيب ومرعب ولكن لغير أهلها ، حفيف أوراق الشجر ، عواء الكلاب أوالذئاب ، الظلام الحالك ، كل ذلك لا يخيف يوسف ، راح يتحسس طريقه ، لكن شبحا ممددا فى الطريق عثرت به قدمه أفزعه ، لكن سرعان ما اطمئن لصوته ، لم يكن الشبح سوى أبوالوفا المجنون ، نائما فى ثياب خفيفة جدا، راح يوسف يستفسر :

- أيه ال منومك هنا يا ابو الوفا ؟

- أنت مش بردان ؟!

- يا عبيط ربك بيعطى البرد على قد الغطا

غمم يوسف :

- حتى المجنون أحسن منى راضى بحاله ومرتاح

سيد كثيرا ما كان يتمنى أن يقلد شقيقه محمود أو صديقيوسف الحصرى لكن شعوراً بالمسئولية غرسه فيه الحاج زكريا تجاه الارض كان يمنعه .

فى آخر مرة كان يلعب فيها الحجلة فوجىء الصبية به وقد فك عقاله واستوى واقفا على قدميه ما يعنى أنه خرج من سباق اللعب ، راح الفريق المنافس يستغل غياب

سيد ، كان العرق قد أضعف من تحكم يده وهو يقبض على مشط قدمه فأفلته ، لم يره أحد وكان يمكن أن يكمل اللعب لكنه شعر بالحياء من أن يغش ، راح يتابع فريقه ويصرخ فى "العروسة" أن تسرع فى الهرب إلى "الحلال" والحلال هو المكان الذى إذا ما وصلت إليه " العروسة" تفوز ويفوز معها الفريق على الفريق المنافس وتنتهى اللعبة ، فى الوقت الذى كان فيه والده الحاج زكريا ينادى عليه ، حين انتبه لنداء والده سارع إليه فبادره بكلام لم يتعود سماعه من قبل :

- أبوك كبر يا سيد وماعادش حمل مناهده واعتمادى بعد ربنا أصبح عليك يعنى انت بقيت من بعدى ، يعنى انت ما عدتش صغير.

زوجته أيضا راحت تنظر لولدها الأوسط سيد على أنه " رمانة " ميزان البيت ، محمود أصبح دائم السفر ، سيد هو الذى أصبح سند أبيه ، يحنو على أخته ، يرعى شقيقه الأصغر ،يتواصل مع أعمامه وأخواله ، لا يلتفت إلى المشاحنات التى تبتلى بها كل عائلة ، كان يحب الجميع فأحبه الجميع .ولكى تربط أولادها برباط قوى من الحب راحت تحكى لهم ما كانت ترددده العجائز أن رابطة الأخوة موجودة فى الحياة الدنيا فقط ، أما فى الأخرة وحتى بعدما يدخل الأخوة الجنة لا يلتقى الأخ بأخيه ، يذهب الواحد منهم لأمه يسأل عن شقيقه فتخبره أنه مشى من عندها لتوه وحين يعود الآخر ويسأل عن أخيه تخبره أنه كان يسأل عنه .

لم تسأل المرأة عن مدى صحة هذه الرواية ، كل ما كان يهمها أن يستثمر الأخ الحياة الدنيا فى الأقتراب من أخيه فتردد على مسامعه :

" أخوك يا ولدى ، الخوه فى الدنيا بس "

مع الايام راح سيد يعشق الارض وتبة العائلة وساحة البغدادي وصحبة الكتّاب حسن وشقيقه الأصغر محمد وصلاة الفجر في المسجد ودروس الشيخ هاشم وصورة إيرى التي لا تزال تراود أحلامه

مرة أخرى يقف سيد أمام المسجد, لكن هذه المرة وحده, يسوقه شوق غامض لذكرى جميلة تأبى أن تندثر, بدت فى روحه كنقش فرعونى.

صعد درج السلم المؤدى الى بوابة المسجد, التفاتة يسيره نحو الضريح وهو يلهج بالسلام ، ثم تقدم نحو النافذة التى وقف أمامها قبل سنوات قليلة يطل منها, مد بصره عبر أعمدة المعبد نحو صفحة النيل والبوابة الرئيسية , لا يزال السياح يتدفقون ، مختلفة ألوانهم وألسنتهم , كثيرات منهن يشبهن إيرى, هو لا يزال يذكر اسمها "إيرى " يردده بينه وبين نفسه كأغنية جميلة ويراجع ملامح وجهها حتى لا ينساه ، لكن لا واحدة منهن مثلها, لو أنها جاءت اليوم حتما ستكون فى عمر وحجم هذه الفتاة التى هناك تستند على العمود الأخير, لكن ما بالها لا تلتفت اليه, بالتأكيد ليست هى والا فأين أبوها وأمها وأين ... ؟

فجأة برز شاب من خلف العمود أحاطها بذراعيه يقبلها قبلة خاطفة قبل أن يعود الى المجموعة المتحلقة حول شاب أسمر تبدو عليه ملامح أهل البلد لكنه يتكلم بلسانهم .لم تعد طفلة اذن, ربما هى الأن زوجة أو عشيقة هؤلاء الناس ليسوا مثلنا ...لكن لا هو لا يريد لصورتها الأولى أن تتبدل حيث البراءة التى تكسو وجهها والروحانية التى تشع من عينيها. هذه الصورة التى تلح على ذاكرته , بالتأكيد ليست هى وليست مثلها . ربما هى هنا تنتظر فى مكان ما, كان هذا هو الخاطر الذى جعله يغادر مكانه خلف النافذة متوجها الى الخارج فجعل المسجد على يمينه ثم راح يدور مع سور المعبد ليصل الى البوابة الرئيسية فاذا بذلك الرجل الدرويش الذى اعترضه ووالده من قبل ، تأكد من أن ذلك الرجل ليس مثل بقية الدراويش. الذين اعتاد أن يراهم فى الساحات وعند أضرحة المشايخ, اعترضه هذه المرة ثم أمسك بمنكبيه وهزه هزا عنيفا وهويقول :

- لا .. لا .. ما تروح ... روحك هى ال تروح, ما انكتب على الأجساد اللقا .

ثم أشار له نحو امرأة تحمل فوق رأسها صرة كبيرة وتجر خلفها طفلة, كانت المرأة تريد أن تلحق بالعبارة النهرية لتعبر نحو البر الغربى ، لم ينطق سيد بشئ, لم يفهم كلام

الرجل لكنه فهم مراده من الاشارة الى المرأة ذات الحمل الثقيل . وفهم أيضا أن الرجل بطريقة ما يعلم بما كان يجيش بقلبه .

بسرعة توجه نحو المرأة وحمل عنها حملها حتى لحقت بالمعدية وهى تدعو له :

ربنا ينصرك ربنا يسترك.

راح الشيخ هاشم يستقصى أوصاف ذلك الرجل الدرويش من تلميذه :

- هو طويل ؟

- أيوه

- أبيض الوجه مشرب بحمرة خفيفة ؟

- أيوه

-كبير السن ؟

- أيوه

- لحيته شديدة السواد ؟

- أيوه.

شرد الشيخ ثم غمغم : وبعدها لك يا عبد الجليل ؟

راح سيد يستفسر :

مين ده وأيه معنى كلامه يا مولانا ؟

وهنا سأله الشيخ بغضب :

ما معنى روحتك أنت عند المعبد ؟

تلعثم سيد ثم قال : ولا شئ يا مولانا .

قص سيد على شيخه كلام الرجل لأبيه من قبل وهو يستفسر عن كلامه :

- يقصد أيه يا مولانا؟

- لا تشغل بالك يا سيد .

أمام مسجد ابوالحجاج وقف الشيخ هاشم يراقب الخارجين من المسجد , يعلم أنه سيعرفه رغم كل هذه السنوات , سيعرف صديقة القديم ، جاء الصوت من خلفه :

- وبعدها لك أنت يا هاشم ؟

احتضنه الرجل وهو يقول : وأخرتها يا عبد الجليل .

رد مبتسما :

- . ما أنا لحقتك أهه ... الولد كان داخل سكة تانية .

- تعالى معاى يا عبد الجليل .

- كل ميسر لما خلق له يا هاشم !

- الحمل ثقيل

أشار نحو السماء ثم قال :

الحمل حمله هو يا هاشم ثم سأل :

- كيف الحال ؟

- الفرع مال .

- مش كل الفروع يا هاشم .

محمد زكريا أيضا يحب شقيقه سيد ، يلازمه كظله إلا إذا تعلق الأمر بصلاة الفجر أو الذهاب مبكراً إلى الزرع ، ينام ملء جفنيه ويخاف من العفاريت ، لم ينس تلك الليلة القمرية التي كان فيها مع سيد يرويان الزرع حيث كان من عادة مزارعي القرية فى الصيف رى أراضيهم بالليل وينتهون منها مع الضحى، ليلتها سار سيد نحو الجبل يتبعه محمد خائفاً وهو يقول :

- أنت مش خايف؟

- عند الجبل يا محمد كان سيدنا موسى عليه السلام يحس بالأمان فوق الجبل سيدنا النبي شاف الملاك وسمع القرآن وتحت الجبل دا يا محمد كان جدك خليل يجمع "السبخ" .

فغر محمد فاه ولم ينطق بشىء تابع سيد :

- لو طلعنا فوق الجبل يا محمد نقدر نشوف البحر، نقدر نشوف تركيا يا ريت الولد حسن كان معانا

- ياريتنى ما جيت معاك
ضحك سيد ثم قال وهو يسحب أخاه عائداً:

- أنت خايف ، لو طال بيك العمر حتشوف اليوم ال يبنوفيه بلد جديدةهنا

يوميات سيد قلما تتغير، يصلى الفجرخلف الشيخ هاشميتناول إفطاره.. يطبع قبلة طويلة على يد أبيه وأمه. يلبس ثوب العمل المصبوغ بلون

العرق ...يلف عمامته تتدلى على كتفه "عدبة" جميلة ترفرف مع نسمات الصباح الندية .يستقبل ذلك النور الفضي الذى يسبق طلوع الشمس ،يسحب حماره وهو يردد :

- أصبحنا وأصبح الملك لله ،يافتاح يا عليم يارزاق يا كريم

يخرج من البوابة ليجد صديقه حسن في إنتظاره يمضيان نحو الزرع.

ولما يلحق به محمد مع الضحى يجده وقد ربط حمل البرسيمو"عزق" بفأسه حوضين من أحواض البصل والثوم ونظفهما من الحشائشيعود ليتناول غدائه يصلى الظهر ثم يأخذ قيلولته مع العصر يذهب إلى الكتّابليساعد الشيخ فى تعليم الصغار. بين المغرب والعشاء إما في الذكر فى ساحة البغدادي أو فى المسجد عند الشيخ هاشم يسمع دروسه .

"سيد دا ولد راجل ربنا يبارك لك فيه يا حاج زكريا"

جملة تعود الحاج زكريا سماعها من رواد المسجد

سيد كان يلف بيديه القويتين"البكرة"الخشبية المعلقة فوق البئرفي تدلى الحبل الملفوف حول "البكرة" ، يربط سيد الدلو بالحبل جيدا ثم ينزله إلىئر. ثم ينزع الماء ليملأ خزان المسجد .ينام مبكراً إلا إذا ها جمته الافكار.

حقا يستطيع والده أن يزوجه مع محمود في ليلة واحدةلكن من هذه التي تستطيع أن تنتزع صورة إيرى المتلبسة بروحه وكيانوتحل محلها ؟

المروج الخضراء كل يوم تذكره بعينهاشجر السدر يطعمه كل يوم ثغرها . حين يفيض به الوجد يهتف بصديقه حسن :

- البنت زي حور العين يا حسن

يراجعه صديقه :
- فووووق... يا سيد دي أجنبيّة ومش من ديننا
- أنا شفتها داخله المسجد يعنى ..
- أنت بتحلم يا سيد

قبل أن يسافر محمود المرةالأخيرة قبل زواجه، كلف سيد أن يبنى له بيتا في المكان الذى حدده له والده وأعطاه بعض النقودواح سيد يصنع الطوب اللّبن فجلب التربة السوداء المكومة على حافة الترعة يحملها على العربة "الكارو " ويكومها وسط التبة ، يهيئها بالفأس على شكل دائرة ترتفع حوافها عن وسطها لتحتفظ بالماء الذى يسكبه فيها .كانت فتحية تضخ له الماءليلا ، تمسك رضاخ الطلمبة بأصبعى قدمها ترفعه ثم تضغط عليه فيندفع الماء من فوهة الطلمبةتساعدها حسنة ونعمات أحيانا.

فى الصباح يخلط سيد بفأسه التراب بالماء وقش القمح فيصير طينا متماسكا يحمله هو ومحمد إلى حسن فى الركن البعيد من التبة . يقطع حسن من الطين ويضع فى القالب الخشبى فيصير الطين قطعمن الطوب اللّبن جاهزللبناء.

قبل الظهريتناولون الغداء .

جاءتهم حسنة بالغداء ذات مرة ,"طاجن" البيض المقلى بالسمن البلدى وطبق "المش" والبصل ,فاحت الرائحة فأهاجت محمد الذى هزه الجوع فصاح:

- ياسلاااام ، الله عليك يا بنت عمى ربنا يجيب لك محمود بالسلامة

حسنة ضربها الخجل فمضت مسرعةبينما غرق هو فى الضحك، نهره سيد:

- أنت قليل الحيا

بعد الشاى يصلون الظهر ثم ينام الجميع القيلولة , بعد العصر يعاودون عملهم حتى إكتمل البناء.

في ضحى يوم من أيام يونيو القائظة وسيد ينتظر أخاه محمدليحمل معه حمل البرسيم فوق ظهر الحمار وكان حسن غائباً ، حيثاقترب محمد من زرعتهم وسيد يتهيأ ليصب جام غضبه عليه ، سمع جلبة قادمة من ناحيةالطريق الزراعيالبحرى المحاذي للسلك الشائك الذى يفصل بين الارض الزراعية وثكنات الجيش والذى يفضى إلى الكوبرى ، رجال ونساء ، أطفال وشيوخ وبعض إفراد بزي عسكري يشتد جمعهم نحو القرية ، بكاء اطفال ونواح عجائز وكلمات متناثرة التقطتها أذنه

الحرب التي قامت...

الطائرات التي ألقت قنابلها على ثكنات الجيشوطالت البيوت المتناثرة وسط الزراعات . في نهاية الحشد الهائم كانت هناك سيدة فيهاية الثلاثينيات من عمرها تتكىء على إبنتها الشابة بينما لا يكف طفلها ذو الأعوام الخمسة عن البكاء ، تقدم سيد نحو الطفل ورفعه فوق ظهر الحمار وسأمامهما ، اجتاحته مشاعر متناقضة وهو يرى ذلك الوجه الملائكي الابيض الحزين الملفوف في طرحةسوداء يحزح صورة إيرى من قلبه
طارمن السعادة حين علم بمقصدهم، ولولا ما فيه الناس من هم وكرب لرقص من السعادة .

في بيت الشيخ هاشم تعرف سيد على فاطمةحفيد ة الشيخ وعلى ما أصابهاوما هي إلا أيام قليلة عرف بعدها هزيمة يونيو67 بكل تفاصيلها ، طائرات اليهود ضربت

الطائرات المصرية الرابضة في مطار الأقصرالحربى ضربتها وهى في مخابئها وبعضها على الرصيف وضربت الكهنة التي كان محمد المنشاويوالد فاطمةيعالج دورانها لتخرج الماء من باطن الارض، راح الشيخ يتسائل :

هل كان العدو يظنأن ماسورتها الطويلة التي تطل من حفرتها بشكل مائل ماسورة مدفع ؟ أم هى الخسة والنذالة اليهودية الصهيونية

يومها كان عزالدين ابن محمد المنشاوي يلعب في جدول الماء المنساب من الحوض الكبير الذى تدفع فيه الكهنة مياهها ، كانت الزوجة قد أعدت بعض الأطعمة لزوجها الذى يعمل فى حقله من قبل طلوع الشمس وأعطتها لابنته فاطمة لتذهب بها إليه ، كان صوت الإنفجار يهز الأركان وكتلة النيران تتصاعد فوق الكهنة وفاطمة تجرى نحوها فتسقط وتقوم، تقوم وتسقط أملعزالدين فدخل في بكاء هستيري .

جاء أعمامهاعلى عجل ،لملموا أشلاء والدها الشهيدودفنوه ، طلبوا من والدتها ان ترحل معهم نحو الشمال ، نحو حجازة كانوا يعلمون أن هذه الغارات ستتكرر،لكنها أبت إلا اللحاق ببيت أبيها الشيخ هاشم في الجنوب فى الخضيرات.في مثل هذا السن وجد الشيخ هاشم نفسه مسئولاً من جديد عن أسرةأرملة وفتاة في مقتبل العمر وطفل يتيم ، آلام العظام تعاوده كل عام في أيام الشتاءلكنها الآن تهجم عليه في عز الصيف .كانت الألام تعاوده في نفس الميعاد منذ كانت تدق عظامه هراوات جنود البوليس السياسي وكعوب بنادق اليهود يوم وقع في الأسر في حرب48 وعلى كثرة ما رأى من أهوال إلا أنه كان يحمد اللهدوما أن نجاهمن عسكري "أدفو" الأسود حين كان في المعتقل.

لكن الحوار الذى دار بينه وبين الضابط اليهودي لايزال يتردد صداه في ذهنهلزل كيانه .. حين علم الضابط أنهأزهري وأنه من صعيد مصر ، من الاقصر قالهازئا :

- ما تخاف حبيبي ، بكره ربنا دك معانا لهلدكم ولكن قل لي الحريم عندكمأخبارهم أيه؟

- النساء عندنا إستغنين عن خدمة اليهود منذ زمن بعيلم يفهم مغزى كلامه في

بداية الامر ثم قال :
- هل تقصد أن اليهود سبق وأن عملوا خدم

عندكم ؟
- الذى جعلكم خدم عند فرعون- عليه لعنة الله- قادر أن يجعل منكم خدم عند المؤمنين المسلمين
- هل كان موسى وهارون خدم عندكم ؟
- حاشا لله ولكن موسى بريء منكم
- هل تعرف لماذا لن نقتلك ؟
- لا تحسب أنى سأستعطفك
- سوف أجلب لك زي الازهر وأجعلك رئيس الخدم في قصر الحاكم العسكري عندما نستولى على بلدك ، أنت قلتإسمها أيه؟

سيد يقشعر جسدة من الغضب كلما سمع هذه القصة من شيخه ، يشعر أنه المعنى بهذا التحدى .هذه المرة البلد كلها من خلفه عروسحجلة، يعد الأيام والشهور لموعد التجنيد ،حتما سيتابع الجيش سلسة عملياتهالتى بدأها ، رأس العش ، تدمير

إيلات ، حتما ستأتى الفرصة التى يقدم فيها ما يتمناه
راح الشيخ هاشم على منبره يهدر كالأسد:

"اليهود وصلوا إلى بلادنا بطائراتهم ، حتما سيطئونها بأقدامهم الملعونة

خططوا لذلك منذ أمد بعيد.. جعلونا مثلهم نتعامل بالربا حتى في زرعنا وطعامنا فصرنا ندعوا فلا يستجاب لنا. شبابنا ما عاد يعمر المساجد ولا حتى الساحات شبابنا هناك عند سينما آمون وحول بنات مازنأين القطب الكبير يا شيخ

بغدادي .."

كانت هذه آخر خطبة للشيخ ، ولولا وساطة عبدالحى البغدادى لجرجروه إلى السجن كان الشيخقد تعدى الستين .لزم الشيخ بيته ، لا يجرؤ على زيارته الا القليل . بعد وفاة الشيخ البغدادى أصبح عبد الحى شيخ الطريقة بعد أبيه , لكن الناس كانت قد تعلقت بالشيخ هاشم.

عند الكوبرى وتحت شجق الكافور الضخمة وفى ليالي الصيف يجد شباب القرية متنفسهم يدخنون ويسمرون يدور الحديث ما بين الدين والسياسة والخلاف القديم الذى بين الساحة والشيخ هاشمالبعض يتعصب للساحة وعبد الحى البغدادى والبعض يتعصب للشيخ هاشم وحده سيد كان يقول أنه يجب أن يكون الجميع الآن يدا واحدة ، يد لا تعرف سوى البناء ، نقف خلف جيشنا ، العدو لا يفرق بيننا فكيف نفرق نحن بين بعضنا البعض ؟!

كثير من الشباب استحسن كلام سيد وراحوا يحضرون ليالى الذكر والإنشاد فى الساحة ويحضرون دروس الشيخ هاشم أيضاأما أذا كان سلطان موجود فلا بد أن ينزلق الحديث نحو بنات مازن أو نعمات فاكهة الخضيرات التى يرفضوها أن يزوجها رغما عنها للثرى الهرم محمود أبو العينين ويرفض أن يزوجها من حسنين إبن أخيه اليتيم . سيد وحسن ومحمد كانوامع الشباب و موسى يحكى بصوت ضاحك :

" .. ولما الشيخ دردير المنشاوى سمع ضرب القنابل أخد عياله واستخبى في دالة ...ولما صاحب الزرع قال مين هناك ؟

رد الشيخ : أنا عيشة.. والشيخ درد ير..."

قاطعه يوسف الحصرى الذى عاد يظهر فى القرية من جديد بعدما توقفت السياحة تماما :

- لم لسانك يا موسى

قام موسى ينفض ثيابه وهو يقول :

- خلاص يا عم أنا رايح عند سلطان ، أنتم قعدتكم غم ، تعال ياجدع أنت وهو احكى لكم فيلم حمام الملاطيلى .
الطيبون في الخضيرات وجدوا في الذكر ما يعزيهم , بينما غرق غيرهم موسى في حمام الملاطيلى.

من جديد طرق الخاطبون بابقناوى ، كان الجميع يعلم ولع بالطعام ، ربما أكثر من المال ، تنافس عليها الثلاثة الأصدقاء الأعداءوهى وأمين وسلطان ، قناوى أفاد من هذا التنافس ، دقيق وتموين حتى جاء أبو العينين وحسم الصراع .

دخل أبو العينين حلبة المنافسة على نعماترغم علم الجميع بحب ابن عمها حسنين لها ، لكنهم يعلمون أيضا رفض قناوى لويعلمون بحب نعمات لابن عمها ، لكنهم يعلمون أيضا بغربته التى طالت .

حسنين أقسم ألا يعود للبلدإلا ومعه زرة يدى نعمات ذهبا .

عام يتلوه عام ولم يعد حسنين ونعمات فى كل مرة يعود فيها عمال التراحيل تسئلهم واحدا واحدا عن حسنين ، كانت تأتى لبيت الحاج زكريا كلما سمعت بقدوم محمود ، محمود أخبرها أنه رأه مرة مع العمال الذين يفجرون الصخور فى جبال أبو سمبل جنوب السد العالى فىأسوان وأنه من المفروض أن يكون قد عادبعد إنتهاء العمل هناك.

لكنه لم يعد.

سيد لا يخفف من حزنه سوى تلك العاطفة التى تسوقه نحو بيت الشيخ هاشم حيث فاطمة ، صورة الملاك الحزين التى إنطبعت فى قلبه .

هى أيضاً طوت له صورة في قلبها ، ذلك الشاب الشهم الذى ساعدهم يوم المصيبة ، والذى يسأل جدها في حرقة :
- كيف يغلبنا اليهود يا مولانا ونحن المسلمين المؤمنين ؟

تجاهل الشيخ السؤال وبادله السؤال بسؤال

- أين صاحبك يوسف ؟

سيد يعلم أن يوسف وكثير من شباب القرية ومنذ زمن بعيد هجروا الساحة والمسجد. وعرف بعضهم الطريق إلى سينما آمون و إلى بنات مازن لكن يوسف بدأ يتخلص شيئاً فشيئاً من العالم المبهر الذى دخل فيه وأذهله عما تربى عليه.

يرد سيد :

- يوسف راجع يا مولانا ، كل الناس راجعة، لازم ترجع

حسن يشعر بما في قلب صاحبه نحو فاطمة ,هو سعيد لان هناك من استطاعت أن تحل في قلبه محل إيرى ، تأكد من ذلك حين لاحظ سعادته البالغة وهو يبلغه مساء أن الشيخ يطلب رؤيته .حين وقف سيد أمام بيت الشيخ سمع طرفا من مناقشة حامية بين الجد والحفيدة تريد فاطمه أن ترجع إلى بيت أبيها لزرع أرضه, بينما يريد الجد أن يؤجرها طرق الباب وحين دخل يغض الطرف عن البدر الحزين ، إنتحت فاطمة جانباً ثم همت بمغادرة المكان لكن الشيخ قال:

- خليك يافاطمة..أهلا سيد , مرحب يا أبو قلبين , سيد زي ولدى يافاطمة وهو أكثر واحد يحافظ على الارض والعرض أيه رأيك يا بطل تزرع أرض فاطمة؟

قالت الفتاة بتردد :

- لكن الارض صغيرة ياجد ومحصولها لا يحتمل المشاركة

أنهى سيد الجدل بجملة واحدة:

- خليها على الله يا فاطمة

لم تكن عادة الشيخ أن يسمح لأهل بيته بالإختلاط , لكنه كان يختار لحفيدته وكان سيد يفهم قصده وكذلك فاطمة وإن غمرها الحياء.

حسن يسأل صاحبه وهما في طريقهما إلى الزرع عن سبب تردده في مفاتحة أهله فى

أمر فاطمة

- معقول يا حسن أقدر أتزوج فاطمه ؟ معقول عبدالحى البغدادي يوافق؟

- لو الشيخ هاشم وافق ، لا تخاف من أي مخلوق خلقه ربنا

- وأعمامها؟

- حسب علمي ليس لها أولاد عم من سنها .

يتحاشى يوسف الحصري الشيخ هاشم حين تلتقى عيونهما من بعيد

لكن الشيخ كان قد أرسل رسالته

تسلم يوسف الرسالة. وراح يجيبه دون صوت :

سامحني ياشيخ هاشم ، لم أعيوسف الذى تعرفه ،يوسف هذا ودعته منذ أول يوم قضيته في ونتر بالاس ومع أول كأس تجرعته ، ذلك الكأس الذى ساقتني بعد ذلك اليها ، إلى نرجس فى شارع المحطة خلف السينما ، سينما آمون .

لم يتوقع سيد أن يكون هو من تلجأ إليه أم يوسف الحصرى. لتنقذ ولدها من الضياع قالت :

- أنت صاحبه وهو يحبك ويسمع كلامك روح له وكلمه يمكن ربنا يهديه، ياخد بنت عمه، عمه مش عاوز منه كثير ولا قليل، ويبعد عن الطريق ال هو ماشى فيها ، دور عليه يا ولدى ينوبك ثواب.

سيد يعرف طريق الفندق الذى يعمل به يوسف، ذهب إليه وحده، فى الفندق دلوه على المسكن الذى يتردد عليه يوسف خلف سينما آمون ، إنقبض قلبه وهو يصعد درج المسكن الموصوف راح ينادى بصوت عال: يوسف ... يا يوسف.

كان باب الطابق الأول مغلقا بينما كان الطابق الثانى يضج بالأصوات، خيل إليه أنه سمع صوت يوسف، يعرف صوته منذ كانا فى الكتّاب سويا .وكان الشيخ هاشم دائما ما يعجب له، وقف أمام الباب يتهيب الدخول فاذا بيدين ناعمتين تدفعانه نحو الداخل، لم يرد أن يرى من فى المسكن ، فقط إستدار بسرعة ليرى من الذى دفعه من

الخلف . فإذا هى إمرأة شابة تستند بذراعها على جانب الباب وترج ما بين سحرها ونحرها، يبرز نهداها من جيب ثوبها، بينما يتناثر شعرها الفاحم على جسدها البض الأبيض .

حملق فيها ونبضات قلبه تضطرب قالت :

- أنت مين يا حبيبى ؟

أجابها بصوت متقطع من التوتر :

- أنا .... أنا أسأل عن يوسف ..... يوسف الحصرى

أجابت :

- آه يوسف .. يوسف إنقشع من هنا .

أراد أن يعبر الباب فاعترضته بجسدها كله .... استنى يا حبيبى هو دخول الحمام زى خروجه .

زادت دقات قلبه ، أراد أن يدفعها لكنه لا يريد أن يلمس جسدها ، عيناه البكر تقاوم غصبة جسدها المكتنز الفاتن، يشعر بالقرف والرهبة المشحونة بالرغبة فى آن واحد ، تصبب عرقا ، راح جسده ينتفض ويغمغم :

- يا رب .. يا رب إمرأة العزيز وما من يوسف هنا.

دخلت وأغلقت الباب خلفها وهو يحاول الإفلات ، يشعر أن شيئا عزيزا على وشك أن يضيع من بين يديه، راح العرق يزداد والرعشة تتحول إلى فوران .

غضب ورهبة ورغبة..

رهبة ورغبة...

رغبة و ..... ثم إنفتح الباب فجأة وأطل منه ...

لم يستغرب مجيئه. وكأنه كان ينتظره . ففى لحظة سابقة مر طيفه على خياله ضمن من مروا، الشيخ هاشم ،والده الحاج زكريا ، فاطمة، هتف:

- إلحقنى يا شيخ....

سكن كل شىء تجمدت المرأة مكانهامذهولة ، كيف إنفتح الباب بينما أغلقته هى من الداخل باحكام.

راح يردد :

- مظلوم يا شيخ

أجابه الرجل بغضب:

-. صاحبك تلاقيه فى أبو الحجاج روح ...

عند الضريح كان يوسف الحصرى متكوما. يضع رأسه بين فخذيه يبكى.

مضى سيد شاردا : كيف يحدث هذا فى المدينة ، وفيها من العلماء من فيها والمساجد والساحات ؟

ثم من هذا الرجل الذى... ؟

هل هو ولى من أولياء الله الصالحين ؟

تذكر سيد أنه تركه عند المرأة ترى ماذا فعل؟

هل يمكننى أن أحكى للشيخ هاشم ما حدث ؟

هل سيصدقنى؟ وماذا لو علمت فاطمة ؟

أيام قليلة مضت على هذه الحادثة . سمع سيد بعدها الناس يتحدثون فى الساحة عن المرأة التى وجدوها مقتولة فى بيتها خلف السينما.

ذهب سيد من فوره بعد سماع هذا الخبر إلى ساحة أبو الحجاج يبحث عن الرجل.

ذهب من الضحى وظل يبحث عنه حتى وجب العصر فلم يعثر له على أثر.

حول الراكية وفى ليلة من ليالي الشتاء الطويلة كان سيد وشقيقه وصديقهم ينصتون كما تعودا لأحاديث الشيخ ، كيف هزم المشركون المسلمين في غزوة أحد رغم وجود النبي صلى الله عليه وسلم بينهم كان سيد مستغرقا يستمع للشيخ بكل كيانه وهو يقول :

- كان سيدنا النبى صلى الله عليه وسلم في المصائب وفى وقت الخطر ينادى على صنف معين من المسلمين : يا أصحاب الشجرة يا أهل بدر..

يا سيد

ثم أفاق على صوت الشيخ ينبهه:

سيد أنت نمت ؟

أجاب فى رجفة :
- لا أنا سامعك يا مولانا

واظب سيد وصحبه على هذه الليالى وانضم إليهمن شباب البلدعدلى وحسين , حين تدق الساعة فى الراديو ينصت الجميع لنشرة الأخبار

حرب الإستنزاف تجدد الأمل.
تطرق الحديث ذات ليلة إلى أرض فاطمة فقال حسن :

- الشهادة لله يامولانا سيد يرعى الأرض أكثر من أرضهم
- أرض تانية هي ال أنا شايل همها ياحسن ، أرض مشى عليها الأنبياءوجاء لنا منها الإسلام مع عمروبن العاص ،أرض تنتظر من يطهرها ويرويها بدمه.

هناك فى مدن القناة الثلاث والشرقية العمل يتواصل ليل نهارلبناء حائط

الصواريخ, لكن ما يبنيه العمال بالنهار كان العدو يهدمه بالليل والعكس ، أكثر من مرة كان محمود زكريا يرى الموت بعينيه وكثيرا ما كان يودع أحد زملائه الذين يموتون تحت القصف بينما تكتب له النجاة ، مع الغروب ينتهى العملوما أن ينتهى أحدهم من عشاءه ويصلى العشاءحتى يتوسد حذاءه ويغط فى سباتعميق. داخل الخيام المنصوبة غير بعيد من موقع البناء ، أما محمود فيبقى ساهرا خاصة فى ليالى القمر،القمر يذكره وجه حسنة فيدندن :

- ينام الليل أبو قلب خالى

شيال الهموم ما ينام

وحده القمر يقرب المسافات.

حسنة أيضا كانت تنظر إليه كل ليلة وإلى البيت الذى جهزه عمها زكريا لعرسها الحاج زكريا وزوجته يباركان إختيار سيد ، راح الرجل يؤكد:

- مصاهرة الشيخ هاشم شرف كبير لكن ..

- لكن أيه يا حاج ؟

- الولد كلها كام شهر ويطلبوه للجيش

ضربت المرأة صدرها وقالت :

- فى أيام الحرب دى ؟

- الولد الود وده يروح النهار ده قبل بكرة , الولد أخد كتير من الشيخ هاشم

- خلاص نزوجه مع أخوه قبل ما ياخدوه ، أنا رايحه أزور أمها وأجس نبضها

رجعت الأم من بيت الشيخ سعيد، عاد محمود ومعه مهر حسنة ومعه خبرا مفرحا لنعمات ، لكنه لم يستطع إخبارها ، كان أبوها قد زوجها لأبو ليلى فوق زوجته العقيم ، بينما تمشى نفيسة أم حسنين فى طرقات القرية وقد فقدت عقلها تنادى ولدها :

- السد اتبنى يا حسنين. فلوسك ودهبك فين

مرة يقولوا فى اسماعيلية ...ومرة يقولوا مع السوايسية

خيبة عليه...خيبة علينا

ارجع يا ولدى ما تتعبش قلبى

ورغم زواجها جاءت نعمات متقنعة تسئل عنه محمود ، أخبرها محمود :

- أيوه يا نعمات شافوه من سنتين بيشتغل مع الفلاحين فى الشرقية .

راح سيد يبنى له بيتا صغيرا بجوار بيت أخيه يساعده فى ذلك صديقه حسن وشقيقه محمد , بينما جهز الحاج زكريا عجلا سمينا يذبحه يوم زفاف ولديه .

مرة أخرى تستشعر زوجة زكريا .أن الحسد يكاد يلتهم أحد ولديها ، فتصر على تأخير زواج سيد ،غضب الحاج زكريا وكادت تكون أزمةحتى جاء الفصل من عند الله فقد تعجلت الحكومة فىإستدعاء دفعة جديدة من المجندين وكان سيد من بين الأسماء المستدعاه , سيد أيضا أصر على التأجيل لكنه إستأذن أباه فى ضرورة خطبة فاطمة وقراءة الفاتحة مع جدها قبل الرحيل

فوجىء الحاج زكريا ومن معه بمرض الشيخ والناس عنده يزورونه ، كان عنده عبدالحى البغدادى، الشيخ يعلم مقصد الحاج زكريا من الزيارة ، وعبد الحى البغدادى تأكد من المعلومات التى بلغتهن تطلع سيدابن زكريا لفاطمة ،غادر الحاج زكريا بيت الشيخ دون مفاتحته فيما جاء من أجله فقال عبد الحى للشيخ :

- أنت صحيح ناوى تعطى بنتنا لواحد غريب

- النصيب يا شيخ عبدالحى

- تفضل واحد غريب على ولدى حفيد الشيخ البغدادى ؟

- حفيده ؟!

- مهما يحصل منه ، هذا هو نسبه ، أولاد البغدادى وأحفاده حيفضلوا أسياد البلد

- ربنا يستر على البلد يا شيخ عبد الحى

- طول عمرك تكرهنا يا هاشم

- لا ياعبد الحى ما تقولش كده ، نحن أهل

استشاط أبوالعينين غضبا . حين علم بزيارة نعمات بيت الحاج زكريا. وسؤالها عن حسنين ، دخل عليها حجرتها وراح يمسكها من فروة رأسها وهو يزمجر :

- رحت تسألى عنه ، لسه بتحبيه ؟

- انت نسيت انك بقيتى مرات الحاج أبو العينين

نزعت نفسها منه مثل نمرة .وراحت تقول بصوت باك :

- انت ال نسيت انه ابن عمى

- يعنى لو رجع داالوقت تسيبينى عشانه ؟!

- يا حاج راح الحب وبقيت الرحمة

شعر بالخجل .فخرج دون أن ينطق بشىء ، فى صحن داره الواسعة لمحته زوجته الأولى من نافذتها فقالت شامتة :

- أيه ...مش قادر عليها بنت الطوّاف !

أشاح بوجهه عنها ثم دخل على نعمات وهو بين اللين والقسوة قال :

- أنا بحبك يا نعمات و...وأغير عليك

كانت نعمات متكورة على سريرها تبكى ، تمدد بجوارها يمسد شعرها بحنان ، راح يجردها من ثيابها . ويضمها إلى صدره الذى يعزف نغما نشازا ، تستسلم له مثل كل مرة منذ زواجهما ، تتفتح كل مسامها لولوجه ،حتى إذا ما أيقظ لذتها ، يقذف ماءه الذى يرجو به امتداده ، يقذفه بسرعة ثم يتمدد جوارها يخور مثل ثور ، يقذف ماءه ويتركها حريقا لا ينطفىء ، ينام ويتركها أسيرة لصورة طيفين

متناقضين . طيف حسنين وذراعيه القويتين تضمانها ساعة حملها على كتفه حين وقعت.... و طيف ابن الجيران الذى كان يحتضن جذع الشجرة فى كل مرة يراها فى صحن الدار تنشر غسيلها ، كان يسكن قصاد بيت زوجها ، تسئل نفسها كل يوم ، ماذا رأى منها حتى يلاحقها بنظراته وحركاته . راح الولد فى جلسات اللهو مع سلطان وموسى يغنى مواويل فاضحة :

- " وبنفلى فى القول فلى

كما خيل تفرك رجوله

وأيه تعمل العايقه فى الى

جات بلوته فى الرجوله"

يضحك موسى وسلطان وهما يعقبان :

- عايقه والله ، فرسه وما لقت خيّالها .

يصل الكلام لمسامع أبو العينين ، يقسم أنه سيضربه بالنار ، خاف الولد على حياته فترك البلد ورحل ، لا يعلم أحد مكانه فقد كان فقيرا معدما وليس له عائلة كبيرة تحميه .

الفصل الرابع

"سيظل الشرق شرق. والغرب غرب. حتى تطوى الأرض"

هناك ....

فى تل أبيب الإحتفالات صاخبة ، الأضواء تغطي جنبات الليل ،الموسيقى والرقص وصيحات المعجبين كانت في إنتظار" شارل يعلون" في الحفلة الخاصة التي أعدها له أصدقائه في أحد فنادق تل أبيب بمناسبة حصوله على وسام الشجاعة ، شارل إنخرط مع صديقته "جانيت" في رقص مجنون ،لكن لاالموسيقى ولاصيحات المعجبين ولاالأضواء كانت لتغطى على حنينه الدائم الى مسقط رأسه فى حى" تشالونى بروغ" فى برلين والى"إيري" تلك الفتاة المسيحية المثقفة التى تربى معها .أسئلة حيرى تتصاعد فى رأسه ،كتلك الاسئلة التي كانت إيري تشغل بها عقله وقلبه وهما فى مكتبة والدها استاذ الدراسات الشرقية:

لماذا يلجأ الناس دائما إلى الحروب ؟

فيسئل نفسه بدوره:

"لماذا قمنا بهذه الحرب بعيدا عن حدودنا ؟

وما هي أصلا حدودنا؟"

جلس ينفث دخانا كثيفا وجواره جانيت تضاحكه .

هو لا يكف عن التفكير في تلك الاسئلة لإنه لا يستطيع التوقف عن حب إيري

راح يعب من كؤوس الخمر عله ينسى ثم بدا له أن يرتمي في أحضان جانيت ليتخلص من هذا الضمير

الضمير الذي كان يحلو لإيري أن تسميه الضمير المنصف وهي تختم حديثها معه وتودعه بعد كل مرة يتمشيان فيها على ضفاف نهر شيريه أوهافل ثم تتجه نحو الكاتدرائية الفرنسية حديثها عن التعايش وثقافة التسامح التي دعا إليها الفيلسوف الألماني ليبتنز في نظريته (العدل الالهي) حين شبه أصحاب الديانات السماوية الثلاث

اليهودية والمسيحية والإسلامية بثلاثة إخوة موحدين يحاولون هداية رجل وثني ولكن كل بطريقته. صوتها الرقيق يرن في مسامعه ونظرة عينيها الحالمة التى تخايله تستنكر ما أصبح عليه وما قام به منذ رحل مع أبيه إلى إسرائيل .هي بالتأكيد لم تنس ما وعدها به وهما يتجولان في أفنية (هانكه) حين قرر أن يدرس فنون الهندسة المعمارية . حين حلق بطائرته فوق سماء الأقصر، كاد يعدل عن المهمة المكلف بها ويبحث عن ذلك المسجد الذي حكت له عنه وهى تصف زيارتها للأقصر مع أبيها، ذلك المسجد الذى يحتضنه معبد فرعونى مهيب.

ترى ماذا يمكن أن تقول لو علمت أنه راح يقتل الأبرياء الذين تصادف وجودهم حول مطار الأقصر الحربي ؟

صحيح أنه لم يكن هو من يحدد الأهداف ، لكنه هو الذي كان يقود الطائرة

في كل مرة كان يرى فيها عمارات السويس المدمرة والشوارع الخالية من أهلها يتذكر أنه يفعل بالأبرياء ما فعله هتلر بأهله ، هو ما يزال يذكر كيف ماتت أمه حزنا على ما أصاب أهلها ، أما هو وأبيه فقد شفع لهما أنهما من الفئة الهجين التى ليس في سلسلة جدودها أكثر من جد يهودى واحد .

حين ضربت الأزمة الإقتصادية ألمانيا قرر هتلر أن مؤامرة لليهود وراء الأزمة واستغل فى ذلك كتاب " بروتكولات حكماء صهيون " الذى ظهرت منه نسخ كثيرة فى ذلك الوقت ألبرت ويعلون كانا كثيرا ما يتناقشان فى مدى صحة نسبة هذا الكتاب لليهود ، يعلون كان ينفى وكثيرا ما كان يشارك فى سحب أية نسخ لهذا الكتاب تظهر فى السوق ورغم ذلك زادت حدة العداء لليهود فى المجتمع الألمانى . كان أبوه يعمل مساعد الأستاذ الجامعة ألبرت يوهان ،الذى يمت لهما بصلة قرابة بعيدة في فترة الإضطهاد وفر ألبرت لوالديه الأمان في بيت صغير ملحق ببيته الكبير بعيدا عن عين النازية ، نشأ شارل في بيت ألبرت ينهل من ثقافته مثله مثل إبنته إيري التي كانت تصغره بعامين

وحين هدأت الحرب العالمية الثانية نسبيا قرر والد شارل الهجرة لإسرائيل وترك شارل في عهدة ألبرت علي أمل أن يعود ليأخذه عندما يطمئن على مصيره في

إسرائيل ، نصحه ألبرت بالهجرة إلى أمريكا فرفض وأصر على اسرائيل.عاش شارل أجمل أيام حياته في بيت ألبرت يوهان في حي (تشالوني بروغ.تحيطحبه العائلة معها في نزهاتها في غابات (غرونيفالد) التي تتخللها الأنهار الزرقاء ويشاركهم فرحة التسوق في شارع (كيو فورست دام).

في متحف (بوده)وأفنية "هانكه "تذوق شارل جمال الفنون المعمارية التى كانت إيرى تعشقها ، فى مسرح (فستنس)راح يستمتع معها بروائع الأدب .

سمع شارل من ألبرت الكثير وسمع من إيري أكثرلكن أين هو الآن ؟ لا يكاد يجد نفسه ، جسده مع جانيت لكن روحه مع إيرى.

لم يستغرق شارل ساعة واحدة في حضن جانيت نائما ، صحا بعدها مفزوعا كعادته حين يعاوده ذلك الحلم الكابوس، كان يرى نفسه بين جنوده في صحراء شاسعة ومن بعيد يظهر شاب قمحي اللون يحمل سلاحفلفدت ذخيرتة فيأمر جنوده بأسره أو قتله فيتحول الشاب فجأة الى أسد هصور يلتهم الجنود جميعا فيصحوهو يحاول الافلات منه ، جانيت أيضا قامت مذعورة تصيح :

- الى متى هذه الكوابيس؟ يجب أن تزور طبيبا نفسيا

قام شارل يتطوح نحو شرفة الفندق يجول بنظره في سماء تل أبيبيتمتم ويهزئ

" ترى هل هذه أرض الميعاد و الاحلام يأبي ؟

الأحلام الكوابيس !

فى الليلة التى قضاها مع والده قبل رحيله إلى إسرائيل ، لم يستطع والده أن يقنعه بما يريد خاصة بعدما سمع خلسة - المناقشة التى دارت بينه وبين ألبرت كانا يتجادلان :

- لماذا اسرائيل ؟

- لأساعد فى بناء دولتنا

- ها أنت يا صديقى تثبت لى بالدليل القاطع صحة ما جاء فى الكتاب " نحن اليهود سادة العالم نحرك فيه الثورات ونثير الفتن ليتسنى لنا حكمه "

- من حقنا أن تكون لنا دولة يهودية ذات سيادة وطموح كما لألمانيا طموح

- تذكر يا صديقى أن أختلاط جدك بالأخرين هو سبب نجاتك من المحرقة

- إسرائيل ستكون لنا خالصة كما تريدون أن تكون ألمانيا لكم خالصة

- يؤسفنى يا صديقى أن تكون ألمانيا الخالصة هذه قد لكم لأنها حتما ستسقط و...

- ما أدراك أنها ستسقط ؟

- هل نسيت أنى عالم ؟

- أشكرك على كل حال

فى هذه الليلة نام شارل مع والده فى سرير واحد يتودعان :

- لا تتركنى يا أبى

- لاتقلق يا شارل ساعود فور الإنتهاء من تدبير معيشتنا هناك

- ولماذا لا نعيش هنا ؟

- هناك أرض أجدادك يا شارل ، هناك وعدنا الرب أن نعيش كملوك لهذا العالم

- أريد أن أعيش مع من أحبهم ويحبونى

- لا..لن يحبك ألا يهودى مثلك

سنوات قليلة عاد يعلون بعدها إلى برلين ليصطحب معه شارل إلى اسرائيلعاد يهذى من جديد :

" هذه إسرائيل إذنيا أبى ؟!...

ما من مقارنة بينها وبين برلين

ما من رابطة بينىوبينها ....

أبدا لم ينفذ كلام أبيه إلى قلبه.

كلمات إيرى ووالدىها محفورة فى المساحات كلها

التسامح الذى حدثوه عنه عاشه فى بيتهم واقعا

الحب الذى لامس شغاف قلبه تجسد فى أصابع إيرى الرقيقة وهى تربت على كتفه تواسيه.

علم ألبرت الذىيريد أن يسمو من خلاله بالبشرية كلها ، الحرية ، العدل ، المساواة .وقفت جانيت تحتضنه من الخلف ، أنفلت من بين يديها فجأة ، استدار نحوها ، راح يمسكها من كتفيها ويهزها بعنف ويصرخ :

- إسرائيل أرض جدباء... لا تتسع إلا لليهود.لا رسالة لبنى إسرائيل فى هذه الأرض سوى الحرب والدمار لا علم ...لا فن .. لا فلسفة ...لا دعوة لمنهج أو نظرية أو نموذج للحياة.

ليتنى شيوعيا أو مبشرا مسيحيا فقط ليكون هناك ما يربطنى بالأخرين .

فرق كبير بين برلين وإسرائيل ، تماما كالفرق الذى يفرق بين إيرى وبين إي....

لم يستطع أن يكمل جملته ودخل فى نوبة بكاء مرير.

على أريكة الطبيب باح شارل للطبيب بكل الأفكار التى تعذبه ، حدثه عن إيرى وعن والدها عن الحلم الكابوس، راح يسترسل:

عزلنى أبى عن كل شىء ، لم أعرف الناس إلا فى بيت ألبرت ، حتى فى المدرسة التى ألتحقت بها كنت أتحاشى الإختلاط بالأطفال ، هم أيضا كانوا يتجاهلوننى ، هل تسمع يا سيدى عن ليلة الكرستال ، ليلة تكسير الزجاج الليلة التى تقرر فيها إبادتنا ،رغم أنى ولدت بعدها بسنوات إلا أننى أشعر فعلا بكونى قطعة من هذا الزجاج المهشم.

نصحه الطبيب بألا يكلف نفسه فوق طاقتها ، ويترك هذه الحساسية المفرطة

بينما تجهم الحاخام المسئول عن الشئون المعنوية للمقاتلين فى وجهه وقال فى حسم :

- أنت تدافع عن وجود إسرائيل وسط غابة من البرابرة العرب فلا ينبغى أن تكون بهذا الضعف

سأله عن الكتب التى قرأها و الشخصيات التى تأثر بها ، تطرق الحديث إلى إيرى وأبيها الأستاذ الجامعى وبينما كان شارل يغادر مكتبه ، كتب الحاخام فى ملف خدمته هذه العبارة " متلوث ببعض الأفكار التى تنافى الطبيعة اليهودية"

توقفت حرب اللإستنزاف ،دخلت البلاد فى حالة اللاسلم واللا حرب.

مات عبد الناصر.

أقام عبد الحى البغدادى جنازة رمزية للزعيم وجلس يتقبل فيه العزاء .

الشيخ هاشم لم يذهب إلى هذا العزاء ، رواد الساحة أشاعوا أنه شامت فى موت الزعيم .

ليلتها جلس سيد يحكى لشيخه :

- الناس فى البلد كلها كانت تطوف بالنعش وهم يبكون
- الله يرحمه
- بيقولوا إنك شمتان

بكى الشيخ وهو يقول

- لو يعرفوا مقدار حزنى ما ...

يبكوا على شخص وأنا أبكى على أمة بحالها ...

على الأحلام ال ضاعت ..

على الأرض ..

هه ..ها... ميت يعزى ميت .

استدعى سيد ومن فى مثل عمره للتجنيد فى أسيوطمرت الايام الأولى لسيد فى أسيوط بطيئة ثقيلة كان يعتقد أنه سيمسك السلاح من أول يوم ويتدرب عليه لا

أن يقف فى الطوابير فترات طويلة فى صفا وانتباة والتدرب على الخطوة العسكرية المنتظمة ، هو يريد تعلم التسديد فورا ، لكنه نجح فى الصبر على ذلك .

فى معسكر التدريب تعرف على شباب من مختلف البلاد المجاورة من أسوان ومن قنا والوادى الجديد، قرى ومدن يسمع عنها لأول مرة.

فى أوقات السمر والفراغ القليلة سمع من زملائه كثير من الحكايات التى تتشابه أو تتقاطع مع ما يحدث فى الخضيرات ففى كل بلد بغداديها وهاشمها وفى كل بلد أمثال سلطان وموسى ولكل بلد فاكهتها من البنات وأيضا فيها قناوى وأبو العينين وحتى لكل بلد مجنونها الذى يصبح وليا من أولياءها الصالحين ولكل زميل من زملائه فاطمة يحلم بها وإن إختلفت الأسماء وها هم يتجمعون فى مكان واحد ليدافعوا عن البلد كلها ، يدافعوا- كما قال سيد - عن الظالم والمظلوم ، عن الطيب والخبيث !

ها هو عبد اللطيف من كوم أمبو يلتحق بالجيش فى الوقت الذى يسطو فيه عمه الحباشى على ميراث أبيه بحجة دين كان له ، يقول عبد اللطيف أنه كان على وشك أن يسد هذا الدين قبل أن يلتحق بالجيش ، أما الآن فهو لا يستطيع ولن يستطيع ذلك اخوته الصغار

أما حفنى الحجازى فهو زميل لا يكف عن النوادر المضحكة راح يحكى عن أبيه ذى الزوجات الأربعة يقول :

- حكيت لابوى ع الجيش وع الطوابير وصفا وانتباه قلت له ، أما صفا دى يا بوى بتريحنى لكن انتباة دى أجارك الله تتعبنى قوى ، قال لى ، خلاص يا ولدى اتجوز صفا وتف على انتباه .

سيد فارع الطول ، قوى البنية فكان طبيعيا أن يكون ضمن القوات الخاصة قوات الصاعقة ، سعادة بالغة كان سيد يشعر بها وهو يفك سلاحه ويركبه لينظفه ويزيته ثم يمسحه بقطعة من القماش كان يحتضنه كما لو كان معشوقته يضمه الى صدره ثم يقبله .فى ميدان الرماية يستمع جيدا لتعليمات الشاويش عبد الشافى : أكتم نفسك ، أغلق العين الخالية من التنشين ، مرر شعاع النظر من فتحة الناشينكاه ، أعلى سن نملة الدبانة ، صوب نحو أسفل منتصف الهدف ، أضرب يا عسكرى .صوت آخرمن الذاكرة يهز أعماقه : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سددوا قاربوا "

خاض مع زملائه تدريبات لا يطيقها إلا الأسود . فى التدريب على ضرب النار بالذخيرة الحية حصل سيد على أعلى الدرجات فحصل على أجازة إستثنائية وعلى ترقية أيضا فأصبح العريف سيدكل القيادات باتت تعرفهوتحبه خاصة النقيب صفى الدين غازى ، ليس لتفوقه فقط وإنما لانه الوحيد ربما الذى كان يسئل كثيرا عن مدى جاهزيتهم للحرب . حين عادالى البيت فى أول أجازة ، هالتهم النحافة التى بدا عليها , فسارعت أمه إلى حظيرة الطيور تتخير السمينةلها لتذبحه ، بينما راحت فتحية تضاحكه وهى تجهز هدايا الزيارةالتى سيأخذها معهلبيت الشيخ هاشم :

- والله ما هو محتاج إلا نظرة من عينها

علم عبد الحى بموعد الزيارة فذهب يحاول من جديد إفشال الأمومستغلا كونه خال والدة العروس ،حين دخل سيد بادره الشيخ وهو يسلم بالقول :

- صحيح يا ولدى كلام السادات " دولة العلم والايمان" ؟

- إن شاء الله يا مولانا

تغير وجه عبد الحى البغدادى وهو يقول :

- وقبل كده ما كنا دولة علم وإيمان يا شيخ هاشم ؟

تجاهل الشيخ السؤال فغادر عبد الى والشرر يتطاير من عينيه .

شىء واحد فقط كان ينغص على فاطمة سعادتها ، أمها لا تمل من مراجعتها :

- يا بنت خدى ابن خالك أحسن ..

أنا شفت كيف جدتك الله يرحمها كانت تقاسى مع جدك لم راح الحرب مع الفدائيين

- لكنها كانت تحبه وعمرها ما ندمت على عيشتها معاه

- يا بنتى كل بنت تحب جوزها والحب دايما يجى بعد الجواز

- ولو كان ابن خالك هو ال فى الجيش كنت راح تقولى كده...؟

- يا بنت ما تتعبيش قلبى

وهنا تدخل الجد - وقد سمع آخر الحوار وهو قادم -قائلا لابنته :

- ما تردى على بنتك ، لوكان ابن خالك هو ال فى الجيش ؟

قالت الأم لابنتها وهى مستسلمه :

- انت حره

حال مرض الشيخ دون إتمام زواج سيد وفاطمة فقرر الحاج زكريا تزويج محمود فى أول أجازة تالية لسيد .

فى صباح يوم الزفاف ذهب سيد لعم جرجس الخياط يتسلم ثياب عرس أخيه ، ألح جرجس فى عدم أخذ أجره لكن سيد رفض تماما .

فى المساء كان سيد يدق باب عم جرجس يدعوه لحضور حفل الزفاف ،استغرب الرجل قائلا :

هو انا محتاج عزومة ؟ لكن انت كنت عندى الصبح ؟!

- الاصول أنى آجى أعزمك وانت فى بيتك يا عم جرجس

وكمان فتحية راح تيجى تعزم جماعتك

- لا يا سيد ، خلاص الدعوة وصلت

كانت روحية وأمها تسمع الحوار ، هى تطمئن لبيت زكريا ولا تشعر بفرق حين تتعامل معهم لكنها لا زالت تنعى على زوجها السكن فى هذه القرية ومغادرة البندر الذى تربت فيه ،تحتج بأن الرزق هناك أوسع لكنه يغلق الكلام فى هذا الأمر محتدا ويردد دائما :

- الرزق فى كل مكان

وهى ايضا لا تمل من القول:

- "لكن الرزق هناك أكتر"
- انا قلت ما تفتحى الموضوع ده تانى

وروحية دائما ما تلطف الجو بين والديها وتقول : البلد هنا حلوة والناس هنا طيبين لكن الأم فى هذا اليوم وقد أثار حفل الزفاف شجونها فتحت باب المناقشة من جديد تقول :

- حد يسيب البندر ويسكن هنا

رد الرجل :

- انا مرتاح هنا
- وبنتك يا راجل؟
- مالها بنتى ؟

- يا راجل أفهم

استغربت روحية كلام أمها ، صحيح انها حين جاءت مع والديها وهى بنت خمس ، لم تكن تخرج من البيت الا مع والديها لتزور جدتها فى البندر ، لم تجد من تلعب معه كما كانت تلعب مع أبناء خالاتها ، هى لم تنس يوم ذهبت الى محل ابيها لأول مرة فتلقفها الصبية يزفونها مرددين :

الخوجاية أهه ...الخوجايه أهه

لكنهم بعد ذلك راحوا يلعبون معها كواحدة منهم خاصة بعدما زجرهم ذلك الشيخ المعم ، يومها وضع الرجل يده على رأسها ومشى معها حتى أوصلها الى محل والدها ، كان الصبية قد ألجأوها الى الحائط وهى تبكى ، لا تزال تذكر كلماته لوالدها :

خلي البنت تبقى زى بناتنا

توتر جرجس فى رده :

تقصد أيه يا شيخ هاشم؟

- يعنى تلبس زيهم يا جرجس ،انت هنا مش فى البندر

- لا مؤخذاه يا شيخ

- لكم دينكم ولى دين يا جرجس ما تخاف

الى حد قريب كانت روحية تعتقد ان السبب الرئيسى فى ملاحقة الصبية لها كونها مسيحية وليس لأنها شقراء ذات شعر أصفر وعيون مخضرة بينما كانت بنات القرية تلمع عيونهم السوداء فى ضوء الشمس تحت الطرحة الصغيرة التى تربطها الواحدة منهن على رأسها وهن يصحن مع الأولاد :

الخوجاية أهه ...الخواجاية أهه

فلما راحت تلبس مثلهن لم يعد يضاقها أحد ولم يكن مستغربا أن تحضر روحية وأمها عرس محمود زكريا .

فى العرس بدأب روحية تستشعر قلق أمها وتفهم لماذا قالت لوالدها "وبنتك ؟ ...أفهم يا راجل؟"

حين لمحها سيد لا يدرى لماذا تذكر زميله فى المعسكرالجندى مجند حنا ميخائيل ، هو ليس بعيدا عنهم ، هو من بلد لا تختلف عنهم كثيرا من نجع حمادى .

مرة أخرى فى تبة آل خليل يجلس قناوى ينادى بتحية "العريس" لكنه لم يعد ذلك الرجل الوضيىء ، ظلمة راحت تسكن تجاعيد وجهه ومياة بيضاء بدأت تغطى على بصره ورغم ما كان يسبغه عليه صهره الثرى من خيرات إلا أنه ما يزال يمتهن هذه المهنة .

لم يستطع قناوى أن يميز موسى وهو واقف أمامه وراح يستحثه على دفع نقود تحية "العريس":

خلف الله عليكم يا محبين والعاقبة حداكم .

خلف الله عليكم يا محبين والأمير المتقدم ...

انتظر قناوى أن يخبره الواقف أمامه باسمه ليهتف به محييا " العريس" فأجابه :

الزناتى خليفة

استغرب قناوى فعاود الشاب قوله:

ب أقول لك الزناتى خليفة

وبينما كان قناوى يرفع عقيرته وهو يبسط كفه لتلقى النقود:

والأمير المتقدم الزناتى خليفة ب يبارك للعريس نقط بالفضه ..خلافة خير...خير...

نكت موسى إصبعه الوسطى فى كف قناوى فصرخ قناوى :

إخص عليك وعلى ال خلفوك...

بينما سرت فى الواقفين حولهما موجة ضحك عارمة ، غادر بعدها قناوى إلى بيته يسب ويلعن .

ذهبت فتحية لدار الشيخ هاشم تستأذنه فى حضور فاطمة عرس أخيها محمود فأذن لها ، لأول مرة ترى فاطمة بيت سيد ، عبثا حاولت فتحية دفعها للرقص مع الفتيات أمام العروس .

إصطف الشباب والرجال يدقون الكف على وقع الدف وصوت الريس سليم :

توب الحرير يا زبيده شبك فى النبقه

قطع الحرير وصحابه موتنا غربه

والصف يردد بعد كل مقطع :

شبك فى النبقه

موتنا غربه

جلس النسوة يشاهدن ، بينما قامت إحداهن متقنعة ترقص أمام الصف للحظات ثم غادرت وقامت غيرها وغيرها واجتاحت الجرأة حتى الفتيات وزال الحرج ما دام الأمر أشبه بالسر ولن يعرفهن أحد قامت فتحية ترقص ولم تكن تظن أن أعصابها ستخونها حين لمحت حسن بين الرجال يدق على كفه

عيون فاطمة تبحث عن سيد الذى كان يدوربصنية الشاى على المدعوين بعد فراغهم من الطعام. راحت تدور معه حيث دار ما من رجل رأها أو إمرأة إلا وحسده عليها .كما راحت الفتيات يحسدنها عليه التف الشباب حول محمود يزفونه نحو العروس وهم يرددون :

- الورد كان شوك من عرق النبى فتح

سعيد يا نبى سعيد من صلى عليه يسعد

عريس ...عريس

الورد كان شوك من عرق النبى فتح

زوجة الحاج زكريا جاءت تزغرد وتحمل "صنية" عليها الملح ترشه فوق النسوة اللاتى تحلقن حول العروسين تصيح :

- حصوة فى عين ال ما يصلى على النبى

تجاوبها النسوة مهنئات :

- محروسين من العين ، ربنا يدّخل معاهم البيضة

ثم يتطلعن نحو فاطمة قائلات :

- العقبى لسيد تفرحى بيه.....

جلس محمود وحسنة فى "كوشة" مصنوعة من جريدتى نخل متعانقتين على شكل قلب أخضر والنسوة حولهما يغنين بينما هما يسترقان النظر إلى القمر ، ها هو يشاركهما الفرحة بعد طول غياب ، ترى ماذا يقول ؟

حسنة تراه يرقص على نغمات قلبها بينما محمود يسمع.

قبل نهاية الحفل طلبت فتحية من شقيقها أن يذهب معها ليوصلا فاطمة إلى بيتها فمشى أمامهما يدق الأرض بعصاه ، عند باب البيت وقفوا ، قالت فتحية لصاحبتها :

- سيد ماشى بعد بكره يا فاطمة

خفضت فاطمة رأسها من الحياء وحين رفعتها كانت تخفية قد غادرت وسيد واقف أمامها

- فاطمة كنت عاوز أقول لك...

- تقولى أن رايح الحرب ..

- ما تخافى يا فاطمة

- لو أقدر أكون معاكم ساعتها بس ما أخاف ، الخوف أنها تاخد منى كل ال...

رغما عنها سالت الدموع ، ود لو يضمها إلى صدره أدارت وجهها ، حاولت تمنع دموعها وهى تقول :

- لازم تعرف أن حياتى فى حياتك الحرب كسرتنى مرة مش راح احتمل التانيه

- حياتك غالية قوى يا فاطمة

فى صباح اليوم التالى كان حسن ومعه والديه فى زيارة للحاج زكريا يخطب فتحية ، فرح سيد بهذا الحدث وإن كان يتوقعه ، منذ لاحظ على صاحبه ذلك الذى يعتريه فى كل مرة يرى فيها فتحية

غادر سيد أسيوط إلى حيث تتمركز كتيبته فى الخطوط الأمامية على الجبهة بالقرب من البحيرات المرة.

كان معه أيضا من زملاء أسيوط حنا ميخائيل وهناك تعرف على حسن السداوى ، ذلك الشاب الذى سرعان ما توطدت الصداقة بينه وبين سيد ووجد كل منهما فى الآخر الصديق الذى خلفه وراءه فى بلده ، وكان كلما شاهدهما أحد معا يقول:

"أيوه ياعم ما هو الصعايده أولادعم الشراقوه"
كان السداوى أيضا قمحاوى البشرة ، طويل ، قوى البنية ، له فى الزقازيق ابنة عم يحبها بينما هو من قرية قريبة من الزقازيق ، أمها كانت تشترط عليه السكنى فى البندر، يفضفض مع سيد :
" الوليه عايزانى أسيب أرضى وزرعى وبهايمى وابقى أفندى ، تقول لى أنا بنتى ما تعيش علشان توكل الجاموسة ، قلت لها أنا مش حاسيب أرضى ولو كانت بنتك من الحور العين وادينى أهه سايب البلد كلها"
خاطر سريع دار بذهن سيد وهو ينصت لصاحبه ، يعقد مقارنة بين زميله حسن السدواى وبين صديقه القديم يوسف الحصرى.
كانت التدريبات كثيرة ومتلاحقة، سيد سعيد بهذه التدريبات ، لكنه لم يكن سعيدا بالمبيت داخل هذه " الدشم " المحفورة فى باطن الأرض ، كانت تذكره بالقبر الذى عاين تجهيزه وهو صغير لجده خليل ، لم يتعود سيد الحياة فى هذا الضيق ، هو يحب البراح ، لذا كان فى البداية لا ينام كثيرا فيخرج أحيانا يصلى فى مسجد الكتيبة أو يجلس مع أحد زملائه المكلفين بالحراسة ، حتى نهاه النقيب صفى الدين عن ذلك ، أحزنه ذلك الأمر حتى جاءت الليلة التى رآى فيها الخندق الذى يبيت فيه يتسع حوله وهو نائم وكلما يزداد اتساعه يسمع صوت الشيخ هاشم مرة وهو يدعو: " اللهم وسع له فى قبره مد بصره " وأخرى يسمع صوت الدرويش الذى لقيه عند مسجد أبوالحجاج بجوارالمعبد : " أسد ..أسد...أسد إمتهد .."
فرح سيد بهذه الرؤية وإن حيّرته كلمات ذلك الرجل .
استغرب سيد من تصاريح الأجازات التى حصل عليها كثير من زملائه وبعض الضباط ، رغم التعبئة المستمرة وأهمية التدريبات الأخيرة التى كانت تختلف عن كل ما سبق فى مدى جديتها .لكنه لاحظ أنهناك أمور تحدث ، شعر معها أن ساعة الحسم قد اقتربت .العناصر الأساسية التى يعتمد عليها فى تنفيذ المهام والتى يتم التركيز عليها فى التدريبات ظلت فى مواقعها على الجبهة ، بينما غادر الأخرون فى أجازات.العلماء الأتقياء تقاطروا على مسجد الكتيبة يشحذون الهمم . شبه كبير بالشيخ هاشم

وبين ذلك الداعية الوضىء الوجه الربعة ،الذى تتقاطر كلماته فتنزل على القلوب كما تنزل حبات المطرعلى أرض خصيبة فتنبت بالإيمان راح يقول:

- اعلموا أنكم تدافعون عن عرض الأمة وشرفها ، الصراع بيننا وبين اليهود ليس فقط صراع على أرض وحدود، لكنه صراع وجود ، صراع الحق مع الباطل ..

اندفع سيد من فرط الحماسة يقول بصوت يخنقه النشيج :

- والله لقد إشتقنا للجهاد يا مولانا ، متى يأت اليوم الذى ..؟

فجاء رد الرجل العالم حاسما :

- إجتهدوا فى تدريباتكم وأطيعوا قياداتكم والله معكم

مع طلوع شمس كل صباح يردد سيد الإذكار التى حفظها إياه الشيخ هاشم ، ينظر إلى الشاطى الشرقى للقناة ، من فوق أعلى ربوة فى المكان ، يترآى أحيانا وجه جده خليل بين التلال وصوت قادم من أعمق نقطة فى ذاكرته

فيردد معه :

"الأرض ما تستغنى عن ملحها والملح عند الجبل ، يبقى الأرض ما تستغنى عن الجبّل ، الله يرحمك يا جد .

بالليل وفى كل مرة يقف فيها بسلاحه فى الخدمة ، ينظر نحو الجبهة فاذا وجه فاطمة يتمدد فى الأفق كعروس الحجلة تنتظر من يدافع عنها يتذكر حزنها على أبيها يهتف :

" والله لجيب حقك يا غالية "

يصيخ السمع لصفير الرياح القادم من الشرق فيسمعها وكانها تناديه :

" خليك فاكر حياتى فى حياتك ، روحى فى روحك ، حبيبى ..."

جاء زميله حسن السداوى الذى يتبادل معه الحراسةذات مرة فوجده على هذا الحال فقال ممازحا :

- بقى لك مدة ما نزلت أجازة ، أكيد وحشتك ؟

- تعرف يا دفعه أنا طول عمرى أتمنى الشهادة لكن لوقت ...

- دا الوقت نفسك ترجع لها

- ال كتبه ربنا راح يكون

فى الليلة التالية لم يكن سيد فى طاقم الحراسة فلم يعرف كلمة السر لكنه أراد أن يشارك زميله السداوى السهر ، قال السداوى ضاحكا :
على فكره كلمة السر الليلة دى عجيبة قوى ، إحنا تعودنا على كلمة أسد ، فهد ، حنش لكن الكلمة الليلة دى ناعمة شوية.لم يكن مسموحا لأحد بمعرفة كلمة السر إلا أفراد الحراسة فقط .ولم يكن مسموحا لأحد مشاركة فرد الحراسة . لكن سيد لم يهتم ، كان ليلتها مهموما على غير عادتهوبينما هما يتحدثانإذ لاح لهما من بعيد شبح قادم من ناحية القناة ، صاح حسن وهو يشهر نحوه سلاحه :
- إثبت مكانك
- أنا جندى مصرى
كلمة السر؟
- نعمات
بهت سيد مستغربا :
- نعمات ؟
قال زميله :
- أيوه يا سيد هى دى كلمة السر
تقدم الجندى نحوهما رويدا رويدا وسيد يحملق فى وجهه غير مصدق ثم صاح :
-حسنين ؟
-أنت تعرفنى يا دفعة ؟
- أنا سيد ... سيد زكريا
مرت لحظات من الدهشة ومن التردثم تعانقا وحسنين يكتم نشيجا يعتمل فى صدره ، ثم أفلته
سيد يعلم ما به فقال:
-أنت راجل ابن راجل يا حسنين
-أنا تطوعت فى الجيش يا سيد ، البلد هى ال باقيه

-خير ما عملت يا واد عمى
أعتقد سيد أنه لابد أن يكتم عنه خبر نعمات، فوجده يعلم كل شىء .
كنا فى عملية سرية على الشط الشرقى وكان لازم أغير طريق العودة
أحكى لى أيه ال حصل؟ وأيه حكاية كلمة السر دى ؟
أنا فرد فى السرية ال فى الناحية ال هناك
أشار حسنين بيده نحو المكان ، لم يكن بعيدا ، ثم حكى ما حدث .
منذ تطوع فى الجيش حاز على إعجاب كل قادته ، قوته البدنية ، صبره ومثابرته فى تنفيذ المهمات ، قدرته العالية على تحمل الجوع والعطش والتعب وعدم التنفس ،أخبرهما أنه حقق المركز الأول فى الغطس والبقاء تحت الماء دون تنفس ، هنا تذكر سيد حادثة قديمة فقال للسداوى :
"واحنا صغار كنا بنعوم فى الترعة وفى يوم الأولاد الكبار تحدوا بعض ، مين ال يغطس فى الميه لأطول مده ، العيال كلهم طلعوا من الميه إلا حسنين ، هنا يطلع ، هنا يطلع مفيش طلعنا من الميه و لبسنا هدومنا واحنا فاكرين انه غرق وفجأة طلع ينفض راسه زى الجن"تابع حسنين حكايته أخبرهم أن المقدم عماد فقط هو الذى لاحظ الحزن المدفون فى خلاياه ، باح له بكل شىء ، تأثر المقدم بما حدث له مع نعمات ، عندما كلفه ومن معه بالمهمة ، أخبره أن المهمة خطيرة ، نظر اليه مليا ثم قال : أعتبر أن البلد كلها نعمات ثم فوجىء به يقترح أن تكون كلمة السر فى هذه الليلة " نعمات "كانت المهمة تتطلب غواصين مهرة يتمتعون بقدرات عالية وكان عبور القوات المسلحة للقناة يتوقف على هذه المهمة ، لم يفصح حسنين عن المهمة ، فقط راح يقول :
هانت يا رجاله.
حرص النقيب صفي الدين غازي أن يحصل علي اجازه قصيرة للجندي سيد زكريا خليل ، استغرب سيد من هذه الاجازة القصيرة التي حصل عليها لمدة يومين فقط فقال لقائده الذي يكن له كل حب وتقدير:
يومين يا فندم لا تكفي دا السفر وحده ياخد يوم رايح ويوم جاي .

أجابه القائد الودود:

انا عاوز أستضيفك في القاهرة اليومين دول يا سيد - يا خبر يا فندم دا عطف وكرم من حضرتك بس .. - لا بس ولا حاجه هتنزل عند الحاج عند حبيبك سيدنا الحسين ، هو عايش وحده من يوم متجوزت بعيد عنه وسكنت في العباسية ، أهي فرصه تقعد معاه اليومين دول.

فرحة عظيمة إجتاحته وهو ينزل مع قائده وصديقه النقيب صفي الدين غازي من القطار، صفي الدين ابن القاهرة ، قاهرة المعز، اخترقا سويا ميدان باب الحديد ثم شارع "كلود بيك" ثم اتخذا شارعا فرعيا في منطقة الرويعي حتي وصلا الي باب الشعرية سلكا شارع أمير الجيوش لينعطفا الي شارع النحاسين الذى انتهى بهما الي الحي القديم خلف مسجد الحسين ، كانا يمشيان بالخطوة العسكرية حينا و يمشيان الهويني فى كثير من الأحيان ، فقد قصد صفي الدين ان يقوم بدور المرشد السياحي مع صديقه الصعيدي الطيب ، فكثيرا ما توقف أمام المساجد العتيقة مثل مسجد الأقمر والسلحدار ومسجد السلطان الكامل ومسجد برسباي ،وقفا طويلا أمام مستشفي قلاون .وبيت القاضي وضريح الصالح نجم الدين ايوب. راح سيد يتطلع ماخوذا بضخامة هذه العمارة وجمال تصميماتها وزخارفها يشعر بنفس الرهبة التي كانت تجتاحه حين يمر بأعمده معابد الاقصر وتماثيلها المهيبة، كان قد تحدث مع صديقه عنها بشئ من الإكبار، كان يعتقد ان الجن هم من بنوا هذه المعابد والتماثيل ، الان و هو يمر بالقباب الضخمة المبنية بالأحجار التي تبدو وكأنها قدت بقالب واحد ، تماما كما كان يصنع حسن الطوب اللّبن من الطين .

راح ينظر الي الجدران المبنية والتي رصت الاحجار فيها بميزان أدق من ميزان الخيط الذي كان يستعمله فوزي الطوّاف " الله يرحمه " أثناء البناء .

تجاذبته النقوش الجميلة والخطوط التي خطت بها آيات القرآن الكريم علي هذه الجدران ، كلها نقشت بيد انسان فنان هو الذي بني ورفع وكتب ورسم ، انسان وليس جنيّا او شيطانا .

علي مائدة الحاج غازي جلس سيد تماما كما يجلس علي مائدة والده أو مائدة الشيخ هاشم ، الحاج غازي رغم انه بلغ السبعين من عمره الا انه يبدو أحيانا عملاقا يتحرك بخفه ، ابيض الوجه مستديره . لحيته البيضاء مهذبة ومشذبة ، عيناه تشعان ودا وجدا ، راح الرجل يتعامل مع سيد كولد من أولاده ، لكنه لا يبالغ في اكرامه حتي لا يشعره بالحرج ، انطلق في حكاياته عن أيام شبابه . وأيام دراسته بالازهر الشريف. وعن عمله كمقيم شعائر في مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط . عن خروجه في المظاهرات ضد الإنجليز. واشتراكه في القتال ضدهم في مدن القناة ، وسيد يتطلع في وجه الرجل كأنما يتطلع في وجه شيخه هاشم فلاحظ الرجل ذلك .طفق سيد يحكي عن شيخه وعما ما قال له الضابط الصهيوني عندما وقع الشيخ في الأسر.

استمع الرجل مندهشا ، راح يبحث في ذاكرته عن اسم وصفة الشيخ هاشم وأخذ يردد :

- هاااشم هاااشم .

لكنه لم يستطع ان يتذكر ، بعدما فرغوا من الطعام والشاي جلس الثلاثة بالقرب من "المشربية" ينظرون الي الشارع ، خلف المشربية يرى سيد من بالخارج ولا يرونه ، كان سيد قد أزعجه ضيق الشوارع بعدما فارق شارع النحاسين. وغاص في الدروب الضيقة مع مضيّفه. لكنه سرعان ما ذهب عنه هذا الانزعاج . حينما دلفا إلى البوابة الواسعة للبيت الذي يسكن فيه عم غازي فاذا درج السلم يتسع للصاعد والنازل في آن واحد ، كما شعر براحة عجيبة حينما وقعت عيناه لاول مرة علي وجه الحاج غازي .

بعد كلمات الترحاب المعتادة والطعام والشراب تيسر له وسط الحديث أن يسأل عن جميع ما عنّ له والرجل يجيب بأريحية شديدة ، أسئلة كان حتما علي ابن الريف والبراح أن يسئلها ، لماذا هذا الضيق بينما البيوت واسعة ؟

تري هل يشير لقب "غازي" الي شي ما ؟

لكن السؤال الأهم لماذا يعيش الحاج غازي وحده ؟ مثله فى الخضيرات يعيش فى كنف أولاده ملكا متوجا ، يخدمه الجميع !

راح سيد يسئل في حياء وتردد ، بينما كان وجه الحاج غازي يتهلل فرحا. أن اتيحت له فرصة الحكي فراح يقول :

- جدي الغازي الكبير جاء مع صلاح الدين الأيوبى كان بيته قصاد بيت السحيمي بجوار قصر المعز لدين الله الفاطمى ، كان مسئولا عن حماية الخليفة الفاطمي وحريمه بأمرمن صلاح الدين ، بعد كدا تزوج واحده من بناته اسمها فاطمة ، عشان كدا احنا ورثنا من الاتنين تركيبة عجيبة قوى الحب الشديد لآل البيت والدفاع الشديد عن أهل السنة .

شوارعنا الضيقة الي انت شايفها دي عمر ما فيه مخلوق من الأعادي الفرنساويه ولا الإنجليز قدر يدخلها ، كان اجدادنا يعملوا المتاريس ضد أي هجوم ويصدوه ، كانوا يحرسون الحريم والأولاد الصغار في البيوت الواسعة دى ،البيوت المبنية بالاحجار الكبيرة ال ما يؤثر عليها شئ ، كل بيت كان فيه صحن مكشوف للشمس والهوا ، حواليه حيطان عالية وقباب زى الدروع ، دالوقت الدنيا اتغيرت والناس بقت تطلع للوسع والبراح في العباسية ومصر الجديدة ، معاهم حق دالوقت شوارعنا ما عادت تساع الرجال و الحريم في الزمن دا ، زمان كانت الست أو البنت نادر لمّا تطلع من البيت وكان بيتها يسعها. وطلباتها كلها مجابه ، تعرف انا ما رضيت أهد البيت ده زي ما جيراني عملوا وبنوا بيوتهم بالخرسانة المسلح ، دورين وثلاثة وأربعة ، علشان أولادهم يسكنو جنبهم ،لان انا عارف ان زمانهم غير زماني ، كلهم سابوا الحى .

ثم أشار إلى ولده الجالس بجوارهما مبتسما وتابع كلامه :

وكنت فاكر إن السبع دا هو الي راح يسكن هنا ويكون هو الوريث ، لكن الجيش سلمه شقه يبرطع فيها. راح يقعد مع ابوه ليه ؟

ضحك صفي الدين وقال :

- انت عارف يا حاج إنى مقدرش استغني عنك ابدا ..

- طبعا انت يا سيد عاوز تعرف أنا ليه عايش لوحدي ؟

مخبيش عليك أنا ناوي أتجوز ، فغرق الجميع في الضحك ثم تابع الشيخ وهو يقهقه :

- عاوزينى أعيش معاهم بعيد عن هنا ، أقول لك يا سيد عاوزك تشوف لى ست صعيديه أصيلة تعيش معايا هنا وتجيب لي وريث يعيش معايا في البيت دا.

وبينما كان يستعجلون للنزول لصلاة المغرب بمسجد الحسين طرقت الباب فتاة تحمل "صينية " عليها ما لذ وطاب من الأطعمة والعصائر ، حين فتح صفي الدين الباب أخذ يصيح ضاحكا :

- إزيك يا صباح ، الله اكبر ، دا احنا كبرنا واتدورنا أهوه

غرقت البنت في حيائها ، تناول صفي الدين منها " الصينية " ووضعها علي السفرة ، راحت هي تلم شعرها المسترسل على كتفيها وتضم جيب بلوزتها ثم قالت : حمد لله علي السلامه يا آبيه .

حين رأت صباح بقايا الطعام علي السفرة قالت :

- هو انت مش صايم يا عم غازي ؟

أجابها الرجل وهو يشير إلى سيد :

- حد يكون عنده ضيوف ويصوم يا صباح ؟

كان سيد يختلس النظر اليها كلما سنحت له الفرصة وقد لاحظ الحاج غازي ذلك وكذلك صفي الدين وقد ساءه ذلك ، هو يعرف عن سيد التدين الشديد ، لكن الحاج غازي وقد استشعر نقاء معدنه راح ينظر نحوه وهو

يقول :

- اتعب لك في يوم فرحك يا صباح علي ابن الحلال ، يكون أصيل وابن ناس طيبين .

سيد أذهله ذلك الشبه الكبير بين فاطمة حبيبة روحه وبين صباح تلك الفتاة القاهرية الباهرة ، الحاج غازي راح يجمّل بضاعته ويغري بها ابن الصعيد فهمس له:

- متخفش لو راحت معاك راح تلبس " الحبرة " و " اليشمك " وال انت عاوزه .

غادرت صباح ونظرات سيد تربك خطواتها ، بينما راح صفي الدين يعاتب صاحبه برفق بعيدا عن والده :

- أيه يا عم سيد أيه الموضوع ؟

وجد سيد نفسه مضطرا لان يحكي لصديقه عن فاطمة وعن الشوق الذي يكابده وان كل ما في الامر ان صباح تشبهها الي حد كبير ، إلى حد أثار لواعج فؤاده يهتف:

- آه يا زهر الرياحين

لوحرمت منك العيون

قال النقيب صفي الدين غازي لصديقه :

- طيب يا عم العاشق أسيبك مع عم غازي تصلي المغرب في الحسين وأرجع اشوفك بكره الصبح .

تذكر سيد وصية قديمة لشيخه هاشم " لو نزلت مصر في يوم من الأيام يا سيد لازم تصلي في أول مسجد بناه فيها الصحابة "، فقال للرجل :

لو ممكن يا حاج نصلي في جامع عمرو بن العاص .

قال صفي الدين :

- لكن دا بعيد يا سيد وعمك غازي ..

فقاطعه والده قائلا : ولا بعيد ولا حاجه ، بس انا عرفت أكيد دي وصية .

فرد سيد :

- أيوه يا عم الحاج .

فقال الرجل : وصية الشيخ هاشم طبعا .

أجاب سيد :

- أيوه .

- والله انت شوقتني للراجل دا ، أنا حاسس إني لو شفته راح أعرفه ، تعالى احنا نركب للدراسه ومن هناك نركب لجامع عمرو والله يا ولدي انا زيك مشتاق أصلي فيه .

علي الناصية كانت صباح تستوقفها احدى فتيات الجيران رغما عنها ، تستفسر منها عن ذلك الشاب المليح الذي كان في صحبة صفي الدين ابن الحاج غازي ، مر سيد بجوارهما مرتبك الخطوات والحاج غازي يتكي علي كتفه أحيانا من قبيل الإستئناس ، رفعت الفتاة صوتها تسلم علي الحاج غازي وتحاول لفت إنتباة سيد في نفس الوقت ،

بينما هما يتجاوزانهما ، جذبت الفتاة صباح داخل بوابة المنزل ثم راحت تضمها بقوه وهي ترد مقطع أغنية " - - أسمر يا اسمرانى "

وصباح تتفلت من بين زراعيها .

كان الحاج غازي يعرف ما يدور في ذهن الفتاتين ، لكنه وان كان يحب الفتاتين ، يفضل صباح عن شادية ، ليس فقط لما بينهما من قرابة ولكن لان صباح هي التي تليق بهذا الصعيدى التقي ، لا يدري لماذا تلح عليه هذه الفكره ، أن يعود سيد لزيارته مرة أخري وأخري ، فتعجبه صباح ويتقدم لخطبتها، حينما خلا بولده للحظات قال له :

- الولد دا في وجه لمحة عجيبة تشد كل من يتطلع فيه قال صفى الدين متخابثا:

- طيب شفت نظراته لصباح

- ايوه بس دي نظرات ما فيهاش رغبة ابدا

- أمال فيها أيه يا حاج ؟

- فيها حاجه تاني ، حاجه حلوه بس مش رغبه ابدا انا ما تعديش عليا حاجه زي كدا .

- علي العموم نظرتك في محلها يا حاج

دخل سيد المسجد العمري مأخوذ الفؤاد زائغ البصر صوت الشيخ هاشم وهو يحكي عن هذا المسجد يرن في مسامعه " أربعة آلاف صحابي جاءوا مع عمرو بن العاص الي مصر ، بنوا مدينة الفسطاط وبنوا في الفسطاط أول مسجد في مصر " ، راح سيد يسترجع كلام شيخه ويردده بينه وبين نفسه :

أربعة آلاف من الصحابة كانوا هنا ، " وهو يندفع في المسجد نحو القبلة لاحظ وجود ثلاثة محاريب قديمة "تري أي منهم كان يصلي فيها عمرو بن العاص ،هل هو المحراب الذي في الوسط ؟ لا..لا بالتأكيد المحراب الذي فى ناحية اليمين "

قام سيد يصلي ركعتين بخشوع ," خلي بالك يا سيد المسجد الي تصلي فيه لأول مرة الدعوة فيه مستجابة " كانت هذه نصيحة شيخه تذكرها علي الفور لكن بماذا يدعو والأمنيات كثيرة متقاطعة ، هل يدعو بالشهادة ؟ أم يدعو بالنصر والعودة ؟ فاذا به

يلهج دون ان يشعر: "يارب النصر والشهادة وفاطمة " ثم راح يتدبر ماقاله. فيردد الدعاء مرة أخرى :" يارب النصر والشهادة وفاطمة " ثم راح يستنكر ما يقول :
طيب النصر مع الشهادة ممكن لكن فاطمة ؟!
ثم رفع يديه مجددا وهو يهز رأسه ويقول لنفسه :
وانت مالك ؟
انت عليك الدعا وهو عليه الإستجابة ، كيف ؟
دا شغله هو.
راح يتلفت حوله في فضاء المسجد الواسع يتأمل هذه الأعمدة العجيبة التى لم ير لها مثيلا حتى فى معابد الأقصر، راح يفكر. ترى هل كان الصحابة يستند أحدهم علي عمود من هذه الأعمدة ، كما يستند هو الآن ، راح يتخيل ويتمنى لوكان معهم .
فيما بعد تذّكرسيد جيدا. أنه قبل أن تهز كتفه يد الحاج غازى لم ينم أو تغوم عيناه ، حين أبصر الزبير بن العوام رضى الله عنه ، متجها نحو القبلة ، كان يبدو جسيما طويلا . معمما بعمامة بيضاء ويخطو خطوات مهيبة .عليه ثياب تشبه ما يلبسه كبار السن في الخضيرات العمامة الكبيرة البيضاء و"الجلابية" البلدى ذات الأكمام الواسعة، بينما كان عمرو بن العاص قرب المحراب الذي فى ناحية اليمين ، رأه وضيئا يميل الي القصر مستدير الوجه يلبس عباءة بيضاء متصلة بها قلنسوة كالتي يرتديها المغاربة .
راح الحاج غازي ينظر الي وجه سيد وهو يقول : ما شاء الله ، اللهم صلي علي النبي ، وشك نوّر يا سيد ، أيه يا عم النور ده ، من أول ما دخلت الجامع وانت نسيت عمك غازي وزى ما تكون هايم في الملكوت .

تسابقت صباح وشادقيفي خدمة عم غازي في اليومين اللذينقضاهما سيد في بيت ذلك الرجل السمن ، الرجل الذي يحبه كلأهل الحي ويثقون فيه كثيرا ويثقونفى كل من يأتي من ناحيته وسيد يبدو شهمأصيلا ، يتمناه كل من يراه زوجا لابنته زوجة عبد الصبور أفندي موظف السجل المدنىوأم صباح تحاول جاهدةأن تتواصل مع

الحاج غازي ، هي تعلم أنه يحبها كثيرا ويحب إبنتها ولطالما كان يدعو لها إبن الحلال الذي يصونها ويقدرها قدرها راحت تلح علي زوجها الموظف الحكومي البسيط ان يدعوهما علي العشاء ، لم تكن تعلم ان الست " جارتها قد سبقتها إلى مثل هذه الدعوة ، احتار الحاج غازي في قبول الدعوتين لكنه قرر الإعتذار بلطف ، فجاءته أطباق الطعام والحلو من كل صنف فراح يلاطف سيد ويداعبه : الخير علي قدوم الواردين .

تجاهل سيد كل التلميحات والتصريحات حين حاول الحاج غازي تهريبه بخطبة صباح ، لكن الرجل لم ييأس كان مدفوعا بشعور غريب أنه لا بد ان يترك هذا الشاب بضعة منه فى هذه الدنيا قبل أن لا يعود ، نفس الشعور الذى شعر بمثله تجاه ولده صفى الدين دون بقية إخوته حين أصر علي ان يزوجه مبكرا بمجرد تخرجه من الكلية الحربية . رغبة في أن ينجب سريعا ، كان يرى أنه طالما يعمل في الجيش فإنه سيكون معرضا للموت في كل لحظة ، فلا بد ان يضمن له ذرية وقد كان .

شادية أيضا لم تيأس وقررت ان تدبر امرا يجمعها بسيد مهما كان الظروف .

لم ينم سيد ليلته الأولى فى بيت الحاج غازى ربما انه لم يعتد تغيير مكان نومه ، كان يتمني لو قضي هذه الاجازة وسط أهله ويري فاطمة ولو للحظات ، لكنه ما كان له ان يرفض دعوة صديقه كما أنه كان سعيدا بزياة المسجد العمري ولم حدث له فيه ، راح يفكر ، تري هل كان يحلم؟

حين قص رؤياه على الحاج غازى ، هاله الحاح الرجل الشديد عليه فى أمر الزواج.

ورغم اهاق السهد والأرق إلا أنه صحا نشيطا خلف الحاج غازي الذي تعود صلاة الفجر في الحسين ، نزل يتهادي علي درج السلم فيما كان يبتدران الشارع رفع سيد بصره نحو شرفة ينبعث منها ضوء خفيف سرعان ما اشتد هذا النور وأطلت منها الفتاة التي لمحها مع صباح ، خفض بصره علي الفور وراح يحتذى خطوات الحاج غازي الذي كان يتكئ علي عصاه .

فى المسجد الحسينى كان الإمام يقرأ فى الركعة الأولى :

" المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا.... "

الحاج غازى يهز رأسه متأثرا بالآية ، كأنه يرى فى قراءة الإمام لهذه الآية على وجه الخصوص رسالة ترد على هواجسه .

فى الركعة الثانية تلا الإمام قوله تعالى :

" من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظروما بدلوا تبديلا * ليجزى الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما * ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراوكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا * وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأثرون فريقا "

تأكدت الرسالة لديه وشعر لأول مرة بالطمأنينة نحو ولده ونحو هذا الشاب التقى وقويت عنده بشائر النصر.

لم تنطل على الحاج غازى حيلة شادية حين أعترضت طريقه وهو عائد ومعه سيد من صلاة الظهر تخبره بالخلاف الذى نشب بين " الأسطى " على وزوجته و ترجوه أن يذهب اليهما قبل أن يتطور الخلاف ، لكن الرجل أعطى لسيد مفتاح البيت وقال : اسبقنى أنت يا سيد أنا راح ألحقك بعد شويه .

وبينما كان سيد يصعد درج السلم نادته شادية باسمه ، وقف مندهشا ، كانت قد كشفت عن شعرها فازداد اشعاع بياض وجهها ، أخذ يحدث نفسه : هى تعلم أن الحاج غازى غير موجود ، ماذا تريد هذه البنت المتهورة ؟ هل أنا مقبل على اختبار جديد ؟ "

صعدت شادية ببطء ، حين لاحظت إرتباكه قالت :

- أوعاك تفتكر إنى بنت مش مؤدبه ، لا يا حبيبى أنا عمرى ما أفرط فى شرفى ، أنا بس كنت عاوزه أقولك الكلمة دى .

رد مستغربا :

- كلمة أيه ؟

قالت فى دلال وغنج :

- فكر فى كل كلمة قلتها لك وشوف أيه الكلمة ال ممكن تقولها بنت زيى أنا لواحد زيك ؟

ازداد سيد ارتباكا ثم راح يقول :

-أنا مش فاهم.

مدت يدها بمصحف صغير ثم قالت :

- النبى قبل الهديه .

راح يمد يده بتردد وهو يقول :

- لو كانت هديه غير دى كنت رفضتها ، لكن الهدية دى ...

- أنا اشتريته امبارح من قدام سيدنا الحسين مخصوص علشانك . وعلشان كمان تعرف أنى مش بنت من اياهم .

- حاشا لله أنى أقول عنك كده ، بس متهوره شويه ،

قالها وهو يبتسم .

- لا يا حبيبى ، أنا لولا عارفه أنك صعيدى شهم وعارف ربنا . ما كنتش وقفت معاك .

لاحظ سيد أنها كررت هذه الكلمات الثلاث " لا يا حبيبى " ، شرد قليلا فيما ترمى اليه ،بينما راحت شادية تنزل درج السلم وهى تردد :

- ربنا يحفظك أنت وكل ال زيك

- مع السلامة .

- الله يسلمك .

كان لابد لسيد أن يحكى ما حدث لعم غازى فكان تعليقه عجيبا أيضا ، قال ضاحكا :

- والله البنت دى ذكية ، بتقولك لا يا حبيبى ..ياحبيبى وانت ولا انت هنا !"

ثم راح الرجل يصارح ضيفه :

-والله يا سيد أنا نفسى أزوجك واحدة من البنتين دول .

رد سيد :

- والله يا عمى أنا قارى فاتحة بنت من بلدنا ، وعدتها أنها لىّ وأنت عارف ..

قاطعه الرجل متمما كلامه :

عارف يا ولدى أن وعد الحر دين عليه .

كانت هذه الليلة الأخيرة لسيد فى بيت هذا الرجل الودود ، راح الرجل يحاول أن يستنبط من كلام سيد ، هل سيحارب الجيش فعلا ؟ وهل اقترب موعد هذه الحرب ؟

الفصل الخامس

" حين يصبح الموت استاذ الحياة "

بينما كان شارل يستعد لقضاء عطلة عيد "كيبور" مع جانيت التى لم يعد يستطيع الإستغناء عنها كانت غرفة العمليات بالقاهرة تضع اللمسات النهائية لخطة عبور القوات المسلحة لقناة السويس عادت الطائرات المصرية من سيناء بعد أن أدت مهمتها بنجاح ثم راحت المدافع تدك حصون العدو بطول الجبهة مع مكبرات الصوت التى وضعها رئيس الأركان بامتداد الجبهة تكبر فى غير وقت الصلاة عبر الجنود وهم يكبرون .مع مغيب الشمس كان الجنود قد حطموا خط بارليف وتوغلوا مسافة تقرأ من أربعة كيلو متر فى سيناء وجرحوا صيامهم بتمرات قليلة وجرعة ماء.وفى يوم من أيام القتال ، هناك عند المنطقة الموازية لعنق البحيرات المرة حول مبان كانت تستخدم كمحطة تجارب زراعية قبل عام 67 بالمساهمة مع اليابان والتى كان اليهود يعتقدون خطأ أنها مزرعة صينية، كانت المعركة كما يقول "شارون" فى مذكراته:" دامية ومميتة إندحرت فيها قواتنا أكثر من مرة وهى تحاول الإنقضاض على القوات المصرية وحتى عندما إستخدمنا المظليين بدلا من المدرعات للدخول إلى هذا الموقع بعملية إنتحارية للسيطرة عليه كانت كارثة مروعة " هكذا علق أحد القادة الصهاينة ،أما الحقيقة فقد رسمها سيد زكريا برشاشه

لم يكن سيد ضمن القوات التى عبرت ، فقد كان لمجموعته دور آخر ، شأن معظم مجموعات الصاعقة ، كان المطلوب منها القيام بعمليات خاصة خلف خطوط العدو ، لمنع الإمدادات عنه وهو يواجه قواتنا التى عبرت القناة ، صدرت الأوامر لقادة المجموعات بالتوجه نحو نقاط معينة لمنع تقدم العدو مستقلين طائرة " هليكوبيتر" تطير على نحو منخفض جدا ثم تنزلهم خلف خطوط العدو وبعد الانتهاء من مهماتهم عليهم العودة إلى القوات المصرية دون المرور بتجمعات العدو الذى يفصل بينهم وبين الجيش المصرى ، مستخدمين وسائل التخفى الطبيعية عبر دروب سيناء ، متخذين من الليل ستارا لتحركاتهم

راح النقيب صفى الدين قبل العملية يتمم على على أفراد مجموعته قائلا :

- كل واحد استلم تعينه ؟

رد الجميع صائحين:

- تمام يا افندم عدا الجندى سيد زكريا .

ثم دار بينهما هذا الحوار

- مالك يا سيد؟

- عاوز استبدل تعينى بذخيرة زيادة يا افندم

- لا يا سيد

- يا افندم أنا أقدر أتحمل الجوع أو العطش لكن لا أتحمل أنى أشوف العدو قدامى وما معى ذخيرة .

سكت النقيب صفى الدين ولم يعقب وكان لسيد ما أراد ، لكن زميله حنا حمل له ما يكفيهما معا دون أن يخبره .

كانت مهمة المجموعة عرقلة امدادات العدو المدرعة المتوجهة نحو المزرعة والتى رصدتها أجهزة المخابرات المصرية ، اذا تمت العملية بنجاح فان الأمر لن يستغرق أكثر من يومين وتعود المجموعة الى خطوط القوات المصرية .

نزلوا من الطائرة مع غروب الشمس ، المكان تنتشر فيه كثبان رملية يصل ارتفاعها نحو ثلاثة أو أربعة أمتار ، راحوا يسيرون بينها بحذر، أخرج سيد تمرات كن معه يفطر عليهن فإذا حنا يعطيه بعض رقائق البسكوت المملح ، راحوا يصلون المغرب فى جماعة واحدة خلف أحد الكثبان بينما كان حنا يرتقى قمته ليحرسهم .انتشرت المجموعة القتالية فى كل الطرق التى يؤدى إليها الممر المحدد من قبل القيادة، راحوا يتقدمون وسط الكثبان الرملية بالقرب من أحد المدقات التى إعتادت دبابات ومدرعات العدو المرور من ناحيتها ، السداوى يحمل "الآربيجيه" وسيد يحمل رشاشه وهكذا كل اثنين فى المجموعة ، راحوا يسيرون طوال الليل يحمل كل منهم سلاحه وصندوق ذخيرة و" كريك صغير يستعمل للحفر ساعة يستشعرون خطر الطائرات وبعد كل مسافة كان كل فرد منهم يحفر حفرة برميلية ويتركها خلفه لعله يعود اليها ، كان النقيب صفى الدين خلال سيره دائما ما يعتلى صخرة كبيرة .أو أحد الكثبان ثم ينظر من خلال المنظار صوب الطريق المتوقع مجيء مدرعات العدو منه . حتى طلع الصبح ولا شيء يبدو فى الافق ، توقفوا عن السير وكمنوا بين الكثبان ، يحمل كل منهم طعامه وماءه و"

كريك " الحفر ، كل اثنين يحفران لهما حفرتين متجاورتين خلف أحد الكثبان يختبئون فيها استعداد للاشتباك فقد تلقى النقيب صفى الدين اشارة تفيد اقتراب العدو منهم ، فاجتمع النقيب صفى الدين برجاله خلف أحد الكثبان القريبة من المدق ، قرر ان يقوموا بعمل كمين جانبى بامتداد المدق ، قسم جنوده على ثلاث كمائن ، كان سيد والسداوى فى أول كمين تمر عليه مدرعات العدو ، وكان هو ومعه أيمن وحنا فى الوسط ، وفى الكمين الأخير كان فيه حمدى وعلى ، أكد عليهم ألا يطلقوا النار إلا عندما تصل أول مدرعة عند حمدى وعلى ، أتفق معهم على العودة إلى هذا المكان الذى سينطلقوا منه ،نظر القائد إلى رجاله ثم قال:

- على بركة الله ، لو ما رجعتش عايزكم تسامحونى عن أى حاجة زعلتكم منى ، ثم نظرإلى حنا وقال :

- احنا يمكن ناخد وقت كتير، خد معاك أكلك وزمزميتك يا حنا

فاضت دموعهم جميعا ، انبرى حنا يقول :

- أنا ح اروح زىّ زيكم ، يا نرجع ونفطر سوا ، يا نموت سوا .

أحتضن الجميع بعضهم بعضا ثم انصرفوا كل إلى جهته زحفا على الأرض ، عند أدنى مكان من الطريق ،حفر كل واحد لنفسه حفرة وفى الميعاد المتفق عليه صوب السداوى نحو الدبابة الأخيرة ثم صوب الأخرون نيرانهم نحو بقية الدبابات والعربات المدرعة .وبينما كان جنود العدو يفرون منها راح سيد يجرى ويقترب منهم جدا و يصطادهم برشاشه ، كان كلما قتل مجموعة منهم ، يرمى نفسه على الأرض ثم يتدحرج على الرمال مسافة قليلة ثم يقوم ليصطاد الأخرين حتى أفناهم جميعا ،ورجع إلى زملائه سعيدا بهذا الانتصار لكن يبدو أن العدو اتصل بقيادته ... وهم فى طريق عودتهم إلى الموقع الذى انطلقوا منه . أدركتهم طائرتى هيلكوبتر من طائرات العدو ، كانت احداهما تطير على مستوى منخفض جدا ، لدرجة أن قائد الطائرة نادى على قائد المجموعة النقيب صفى الدين غازى ومن معه يحثهم على تسليم أنفسهم ، بينما استطاع سيد والسداوى الإختباء فى أحد الحفر.رفض النقيب صفى الدين طلب العدو. وراحوا يصوبون نيرانهم نحو الطائرة ، وجه السداوى قذيفة " آربي جيه "

للطائرة الثانية فأصابها إصابة جزئية ، صاح قائد المظليين فى جهازة اللاسلكى طالبا النجدة :

" يا الهى ماذا يجرى هنا "

هو لم يكن يتصور أن يصيب جندى على الأرض طائرتة بسلاحه البسيط .

سارع الجنود للقفز منها ، لكن سيد راح يصطادهم كالعصافير ، كانت الطائرة الأخرى قد دارت بسرعة و صوبت نيرانها نحو قائد المجموعة ومن معه فاستشهدوا جميعا .حين تحطمت الطائرة الأولى ، حاول قائد الطائرة الثانية سحب القتلى والجرحى ، لكن السداوى راح يصوب نحوها فلاذت بالفرار

أخذ سيد وزميله يحفران بسرعة قبورا للشهداء و بعدما فرغوا من دفنهم والصلاة عليهم راحو يجرون نحو الموقع الأول ، يحملون أسلحة زملائهم الشهداء ، ثلاث رشاشات ومدفعين " آربيجيه " وصناديق الذخيرة التى كان يحملها حنا ، بحث سيد عن جهاز الإتصال الذى كان يحمله النقيب صفى الدين فلم يجده ، مرة أخرى عادت طائرات العدو تتعقبهم ، سمع سيد والسداوى أزيزها فسارعا إلى الحفر التى كانوا قد أعدوها فى السابق ، أطلقت إحدى الطائرات قذائفها فأصيب السداوى بشظية فى قدمه فراح يحجل على الأرض وسقطت منه الأسلحة التى كان يحملها ، اختبئا فى الحفر ، راحت الطائرات تحوم فوق الحفر المتناثرة بين الكثبان الرملية والقذائف تنهال فوقها، عمد سيد إلى تضليلهم عن موقعهم بالتحديد. فكان يتحرك من حفرة إلى أخرى باستمرارثم يطلق نيران كثيفة نحو الطائرة، التقط سيد الأسلحة التى سقطت من السداوى ، جرى إلى أقرب حفرة من زميله ، نادى عليه :

- انت كويس يا حسن ؟

جاءته الإجابة متقطعة :

- الح..مد لله ال ..إصابة خفيفة

كانت الساعة تشير نحو العاشرة صباحا ، السداوى يوجه قذائف "الآربي جية" نحو الطائرات حين تقترب فوقهما فتخطىء هدفها ، سيد أيضا راح يستخدم "الأربي جيه" ، راحت الطائرات تطير على مستوى مرتفع جدا ، فقد بدا أنهم فعلا تعلموا الدرس ،

ساعد ذلك البطلين على التحرك بحريه وبمساحات أكبر بين الحفر حتى ظن العدو أنهم أمام سرية كاملة وذلك من كمية الطلقات التى صوباها نحو الطائرات من أماكن مختلفة وفى اتجاهات مختلفة .

الشمس تحترق فى قلب السماء. وقلوب الأعداء تحترق من الغيظ ، العرق يكاد يضعف من تحكم البطلين فى سلاحهما ، والطائرات لا تكف عن القصف ، سيد بين ساعة وأخرى يطمئن على زميله :

-حسن أنت كويس ؟

- الحمد لله

فى آخر النهار قرر العدو إنزال جنود مظليين لتمشيط المنطقة والإنتقام من الجنود المصريين ، ثلاث طائرات أحاطت بالمكان من ثلاث جهات وبينما كان الجنود ينزلون راح سيد يجرى بين الحفر ويصوب نحو الجنود مرددا قوله تعالى :

- " وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى "

أصاب منهم لكنهم كانوا كثر ، كان يجرى بين الكثبان والصخور المتناثرة، يرمى نفسه على الأرض يتدحرج للحظات يشعر فيها بدوى طلقات الرصاص فوق رأسه ، يظنه العدو قد مات ، يقوم مرة أخرى مصوبا نيرانه نحوهم بتركيز شديد وسرعة أشد.

فيظنه العدو جنديا آخر ، يصوبون نحوه من جديد ،السداوى من مكانه راح هذه المرة يستخدم الرشاش يغطى سيد فى تحركاته ، فكر سيد فى خطة جديدة تمنع العدو من تطويقهما ، اقترب من السداوى وراح كل منهما يعطى ظهره للأخر ويطلق رصاصه فى اتجاه مختلف حتى توقف تقدم العدو. شعرا بقلة النيران التى كانت تنهمر حولهما. فنزلا إلى حفرتهما المتجاورتين ، تأكد العدو أنه أمام مجموعة كبيرة من المصريين ، راح البطلان يلتقطان أنفاسهما ، بدأ السداوى يجزع :

- كل دا والقيادة مش حاسه بينا ؟ مفيش حد يلحقنا

رد سيد :

- لا تنسى إن المنطقة خارج مظلة الدفاع الجوى وان الإتفاق ان احنا نرجع بسرعة

- يعنى ايه ؟ حنموت يا سيد ؟

- ارمى حمولك على الله هو وحده قادر ينجينا
- ونعم بالله ، لكن ..
- لكن أيه يا حسن ، اياك تغضب ربنا واحنا فى آخر أيامنا
- حاشا لله ، أغضبه دا الوقت وأنا ما ليش غيره ، أمانه عليك يا سيد لو مت تدفنى وما تسبنيش كده
- ولو أنا مت قبلك ؟
- معرفش ليه بيتهيألى انك مش راح تموت ؟
- يعنى أيه ؟ راح أخلد ؟
- ال زيك يا سيد الخلود قليل عليه
- آه يا حسن بتفكرنى بصاحبى ال عمرى ما فارقته

تنهد سيد للحظات ثم قال :

- آه.. يا صاحبى لو أنا ال دفنتك مين ال راح يدفنى أنا
- ال زيك يا سيد ربنا مش ممكن يهينه

سكت السداوى للحظات ، كان الرصاص لا يزال يدوى فوق رأسهما ، ثم قال :

- حاسس بهم بيقربوا منا .

قال سيد :

- أنا راح اتحول ل حفرة بعيدة
- لا ، لا تبتعد كثيرا

أول ما تلاقينى بطلت أضرب تعرف أنى جايلك زاحف ، تقوم انت وتضرب

تقدم سيد إلى حفرة متقدمة نحو العدو ، كان يحمل معه معظم الذخيرة ، راح يطلق رشاشه فى كل اتجاه دون تركيز كان هدفه أن يتراجع العدو ، لم يكن يظهر نفسه ليراهم ، ورغم ذلك سمع صرخات بعض جنود العدو ، عاد كما اتفق مع السداوى ، السداوى أيضا راح يضرب فى كل اتجاه حتى سمع صوت سيد :

- الله عليك يا سداوى

أجابه :

- حمد الله على سلامتك
- أخبار جرحك أيه ؟
- الحمد لله .
خلع السداوى حذاءه وجوربه ، أخذ يتحسس جرحه ، كان الجرح يتوسع وقطعة من لحمه تترهل وزرقة تنتشر حول الجرح وسخونة راحت تسرح فى جسده .زاد يقين العدو أنهم أمام مجموعة كبيرة من المصريين المدججين بالسلاح ، خاصة سلاح الأربي جية مما زاد من اعتمادهم على الطيران وليس المدرعات أو الدبابات .مالت الشمس نحو الغروب وراح الظلام يفرض هدنة على المقاتلين ، اقترب سيد من السداوى لدرجة أنه كان يسمع أنينه ، فقال :
- عامل أيه دا الوقت يا حسن ؟
لم تتغير الإجابة :
- الحمد لله ، أحسن
- طيب ، ريح انت ونام وأنا حافضل صاحى
بحركة بطيئة أخذ سيد يبحث عن الطعام الذى خلفوه سابقا ليفطرفلم يجد شيئا ، كان القصف قد غير من خريطة المكان ، أشياء كثيرة دفنت فى الرمال ، بعد طول عناء لمح زجاجة ماء مرمية فى حفره ، حين ألتقطها تذكر صاحبها على الفور ، كانت تخص زميله حنا ، تذكر كلماته :
-" أنا اروح زىّ زيكم صايم ، يا نرجع ونفطر سوا ، يا نموت سوا "
ترقرقت الدموع فى عينيه ، على مقربة من الزجاجة وجد علبة من "البسكوت" المملح ، راح يفتش فى جيبه عن تمرات كان يحتفظ بهن، وجد تمرتين ، مص واحدة ثم شرب جرعة ماء ثم عاد إلى صاحبه فناوله تمرة وبعض شرائح "البسكوت " ، لم يستطع السداوى أن يأكل فقط راح يشرب من الزجاجة بعض رشفات ثم عاود النوم .فى هدأة الليل فوجىء سيد بالسداوى ينطلق نحو العدو وهو يحجل ، راح العدو يضربه فيسقط ثم يقوم ويحجل وفجأة تحول وجهه إلى وجه آخر ، وجه شقيقه محمد ، كان محمد يحاول الإفلات من موسى وسلطان وهما يحاولان طرحه على الأرض ، كان

يجرى نحو " الحلال" ذلك المكان الذى إذا ما وصلته عروس الحجلة تفوز ويفوز فريقها بينما يخسر الفريق الآخر ، الشيخ هاشم راح يستحث العروس على الإسراع ، اختفى محمد وظهرت فى الحلال فاطمة وهى تبكى وتصيح :

العروسه جات وسيد ما جاش يا جد .

بينما يقف الحاج غازى فوق بئر المسجد وهو يهتف : لا تتأخر يا سيد ..

زعق الشيخ هاشم :

سيد ...سيد

انتفض سيد مذعورا من رقدته وأفاق على الصوت ، راح يتلفت يمينا وشمالا ، لم يجد سوى السكون ، النجوم بدت كثقوب تخترق صدر السماء ، القمر قطعة قماش تضمد جرحا فى جبينها ، تذكر أنه لم يصل طيلة يومه هذا ، صعد إلى أعلى نقطة فى المكان راح يتلفت حوله ، السكون هو سيد الموقف ، ضرب بكفيه على الرمال ثم نفضهما ومسح بهما وجهه ويديه ، راح يصلى الفروض كلها ، قام يتفقد صاحبه ، كان صوت انينه واهنا ، راح يوقظه بهدوء :

- حسن ..حسن

- أه ..أه

- عامل أيه يا حسن

- الحمد لل....له

- قوم يا حسن ، كل لك حاجة

راح سيد يحفر ممرات بين الحفر ليتنقل بينها عند اللزوم ، وضع فى كل حفرة بعض الذخيرةوجد بعض الأطعمة التى تركوها وزجاجة ماء ، أكل وشرب فيما كانت الساعة تشير نحو الساعة الثالثة قبل الفجر وبينما هو يصلى سمع السداوى ينادى بصوت مذعور ويشير بيده :

- فيه صوت وحركة جاى من الناحية دى

وسرعان ما أحسا بالعدو يتحرك من أكثر من جهه

- طيب أنا راح أتحرك بعيد واتعامل معاهم من ناحيه تانيه ، عاوزهم يحسوا ان احنا كتير

كان سيد وصاحبه بين مثلث غير مكتمل من جنود العدو ، سيد فى حفرة قريبة من رأس المثلث والسداوى فى وسط القاعدة ، راح سيد يدور فى نصف دائرة يوجه نيرانه نحو ضلعى المثلث ، بينما يوجه السداوى نيرانه فى اتجاه الضلع الثالث ثم يتحول الى الضلع المقابل متجنبا مكان سيد واستخدم قذائف " الأر بي جيه" أكثر من مره يوجهها نحو قمة أى كثيب تأتى نيران العدو من جهته حتى توقف العدو وسكت .

مع طلوع الفجر توقع سيد حضور الطائرات لتحوم فوقهم ، راح يزحف و يقترب من السداوى وينادى عليه :

- حسن ..يا حسن

لا إجابة

- حسن ...حسن

لا صوت يسمعه ولا حتى اشارة .

جرى البطل الى صديقه ورفيقه الذى رافقه كثيرا فى التدريبات والخدمة على الجبهة ، أيامها لم يتعد الأمر أكثر من زمالة وربما صداقه ، لكن فى هذا اليوم وتلك الليلة كان هو صديقه وحبيبه وكل أهله .كان البطل ممددا على الأرض خارج حفرته ، مقبل غير مدبر، أكثر من مائة رصاصة اخترقت صدره وبطنه ، استشهد البطل ، مات السداوى ملك الآربيجيه كما كان يلقبه النقيب صفى الدين أثناء التدريبات، لثم سيد خده ، نزل الحفرة وراح يسحب السداوى وطلقات الرصاص لا تزال تدوى فوقهما ، وضع خوذة الشهيد فوق وجهه ثم راح يسحب الرمال .خرج من الحفرة يزحف ، عمر رشاشه ورشاش زميله بالذخيرة ، علق رشاش السداوى على كتفه ثم أمسك رشاشه وراح يحبو بين الممرات التى أعدها بين الحفر ، توقف جنود العدو عن التقدم ، لكنهم كانوا قد خططوا للتسلل من الجهة الخلفية ، الجهة الوحيدة التى لم يستخدمها العدو كثيرا، طائرة للعدو لمحها سيد من بعيد ، راحت تهبط فى الناحية التى بينه وبين طريق العودة ، كان القوات المصرية تبعد عن موقعه أكثر من عشرة كيلو مترات ،

أدرك أنه محاصر من جميع الجهات ،راح العدو يضيق عليه الخناق وهو يغير موقعه باستمرار ويطلق نيرانه فى كل اتجاه وعينه على الجهة الخلفية جهة العودة، ظل على هذه الحال حتى مغرب الشمس .

أفطر على جرعة ماء ، شعر بدوار ، راحت الصور تترآى أمامه تترى ، الشيخ هاشم يهتف :

- أرض تانيه ال أنا شايل همها ، أرض مشى عليها الأنبياء وجاء لنا منها الإسلام مع عمرو بن العاص "

والده زكريا :

- انت ما عدتش صغير"

صوت فاطمة الحزين : حياتى فى حياتك

أفاق على صوت الطلقات ، قرر أن يهاجم الجنود الذين بينه وبين طريق العودة إلى الغرب حتى إذا ما نفدت ذخيرته يطلق ساقيه للريح نحو الغرب .

راح يزحف نحو المتسللين ، كانوا ثمانية جنود والطائرة خلفهم ، يمشون فى خط أفقى مستقيم ، تبادل سيد معهم النيران ، راح يختبىء خلف الصخورويصطادهم واحدا واحدا.بقى واحد منهم يطلق النار نحو سيد. فى الوقت الذى راح جنود العدو يحاصرونه من الخلف ، الجندى يطلق نيرانه وسيد لا يرد فقد نفدت ذخيرته ، الجندى الإسرائيلى أيضا نفدت ذخيرته ، أحس سيد بذلك فاندفع نحو الجندى يشتبك معه فى عراك بالأيدى .

الضابط شارل يعلون الذى كان واقفا عند الطائرة يحمى ظهر زملاءه المتسللين راح يرقب الموقف غير بعيد ، جندى يهودى فى مقابل جندى مصرى مضى عليه يومان ينافح لدرجة أن أخباره وصلت لقائد العمليات ، ترى لمن تكون الغلبة ، راح يراقب .

لم يكن يعلم أنه على موعد مع حلمه الكابوس .

الفرحة تغمر كل بيت فى مصر وفى الخضيرات، إلا بيتا واحدتكدرت فيه الفرحة ، بيت الشيخ هاشم.

كان الناس يترددون عليه للإطمئنان على فاطمة التى أصابتها حمى شديدأصفر معها وجهها الجميل، تذكر الجميع سيد وتمنوا لو يعود سريعا ليتم شفائها وتكتمل أفراحهم . تتحامل فاطمة على نفسها لتجلس جوار جدها تتابع أخبار النصر لحظة بلحظة من خلال صوت المذياع ، كانت تتبادل مع جدها نظرات ذات مغزى وكلام دون صوت :

- ربما جاءت هذه الحمى فى موعدها تماما يا جد

- قادر ربنا يأتيك بشفائك

- قلت له حياتى فى حياتك

- اللهم رضنا بقضائك

- سيكون اللقاء على أية حال يا جد

طلبت فاطمة من أمها أن تفتح النافذة

أرسلت بصرها نحو السماء

بدت كأنها تتفحص مشهدا يرتسم فى الأفق

مدت يدها وكأنها تمسح غبارا يحول بينها وبين ذلك المشهد ثم سقطت يدها فجأة

لم ينتبه سيد لوجود شارل الذىنزل من طائرته واح يراقب الموقف من خلف أحد الصخور الكبيرة ،لم يدر شارل لحظتها أهو فى عالم الحقيقة والواقع أم أنه فى كابوس مرعب ؟

الجندى المصرى يحمل نفس الوجه الذى كان يزوره فى أحلامه قبل أن يتحول إلى أسد هصور.

سيد كان واقفا فوق جثة الجندى صوب شارل رشاشه نحوه وهو يصرخصراخ هيستيرى :

- لا..لا

لم يصدق عينيه وهو يرى الأسد يسقط مدرجا فى دمائه وهو رافعا يده كأنه يلوح لشخص ما.

مرت لحظات كأنها دهر.

وجد فى نفسه بعض شجاعة فتقدم نحوه يسمع حشرجة صوته

- فا ..فاط ..أشهد .ألا...اله ..إ..لا...الله....مح...س..اهلي

حين رأى الإبتسامة على شفتيه ساوره الشك أنه ربما يعود للحياة من جديدفظل على حذره مصوبا سلاحه نحوه

ينظر إليه ، يستنطق ملامحة ، يسئله :

- أي طراز من الرجال أنت ؟ ! أي قضية تلك التي جعلتك تعانق الموت في سعادة ؟! أيها الرجل ، ماذا أفعل لك ، أعترف أنك أفضل من رأيت ، لم أر مثلك ، لكن دع هذا يكون سرا بيننا .

تملكته رغبة عارمة فى تفتيشهوأخذ متعلقاته الشخصية، البطاقة الشخصية ، مظروف بريد يحوى رسالة ، مصحف صغير ، بعض نقود.

لم يتمالك نفسه . رفع رشاشه لأعلى وأطلق دفعة أعيرة. أكثر من عشرين طلقة ثم راح يوارى جسد الأسد تحت الرمال بعد أن وضع خوذته فوق وجهه .

ركب الطائرة وهو يرتجف ، راح قائد الطائرة يعنفه :

- كيف تفعل هذا مع عدو فعل بنا ما فعل ؟!!

لم يستطع شارل الإستمرار فى الحرب ، رقد فى مستشفى عسكرى يعانى من إنهيار عصبى.

لم تكد الخضيرات تخرج من أحزانها على فاطمة حتى جاءتهم الأخبار باعتبار سيد من المفقودين ، كان الحاج زكريا يتردد كل يوم على مكتب التعبئة العامة للقوات المسلحة بالأقصر يسئل عن ولده دون جدوى ،يسئل هل هو شهيد فيحتسبه عند الله ؟ أم هو أسير ينتظر تبادل الأسرى ؟

رقد شارل فى مشفى خاص ببرلين يقضى معظم الوقت نائما بفعل المهدئات وحين يصحو يظل يهذى :

- لا ..لا إيرى أنا إنسان متحضر ، لست همجيا ، أنا أحبك
نصح الطبيب والده بأنه ربما يكون لإيرهذه دور كبير فى شفاءه
لم يكن ألبرت على وده القديم لهما وبدرجة أكبر كانت إيرى .
بعد إلحاح كبير جلست إيرى إليه
على مقعد رخامى تحت شجرة زيزفون كانا قد إعتادا الجلوس عليه فى غرونيفالد
.سمعت منه. رأت عليه بوادر الندمولكن ...
حين اطلعت على متعلقات الجندى المصرى التى إحتفظ بها ورأت الصورة المثبتة على البطاقة راحت الصورة تتطابق مع صورة قديمة منحوتة فى ذاكرتهاالملامح تغيرت قليلا ، لكن العيون هى نفسها صورة إلتقطها أبوها قبل سنوات أمام مسجد يحتضنه معبد يحتضنه نهر زارته ذات يوم
قال لها :
- لم أكن أريد قتله ، وددت لو أخذته أسيرا ، لكننى خفت منه
- تعرف يا شارل أنت لم تقتله ، هو الذى قتلك
- ما قصدك ؟
- لا أظن أنه بإمكانك تفهم قصدى
تركته ومضت بينما راح هو يصرخ فى هستيريا زادت الغيرة من حدتها :
- لا تهزأى بى إيرى ..نحن شعب الله .. إيرى ..إيرى لا تتركينى ..إيرى

" تمت "

سيرة المؤلف

شعبان محمد أحمد عبد الكريم
شعبان القاص
عضو مجلس إدارة ملتقى السرد العربي الدائم بالقاهرة
عضو مجلس إدارة نادى أدب الطود
أمين رابطة الساردين العرب بالأقصر
يعمل بالتربية والتعليم
جمهورية مصر العربية
الأقصر89 ش جدة متفرع من ش التليفزيون
هاتف01062296402
البريد الإلكترونىsalamyabaldy@yahoo.com
صدر للكاتب مجموعة قصصية "بين الزينية والكرنك" عن دار النسيم القاهرة تحت الطبع
مجموعة قصصية بعنوان " حتى لا يرانى الذى يشبهنى" عن دار الحضارة العربية- القاهرة